16 em Année No. 780

Lundi — 14 — 6 — 1948

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

العــــدد ٧٨٠ « القاهرة فى يوم الأثنين ٧ شعبان سنة ١٣٦٧ — ١٤ يونيوسنة ١٩٤٨ » السنة السادسة عشرة

أدباء معــــاصرون

أرشحهم للخلود

لحضرة صاحب المعالى الأستاذ إبراهيم دسوقى أباظه باشا

رئيس جامعة أدباء العروبة

يسألنى السائلون عمن أرشحهم للخلود من أدبائنا المعاصرين، وأحسب إلى أن يكون الجواب على صفحات « الرسالة » الغراء.

***

إذا ما ذكر الناثرون، كان أول من أذكره، وأول من يستأثر بإعجابى، الأستاذ الجليل أحمد حسن الزيات، فهو أقوى كتاب العصر ديباجة وأنقاهم أسلوبا وأعرفهم بالصيغ العربية الصحيحة، ومن أراد البيان العربى فى أسمى درجاته فعليه بما يكتبه الزيات.

أما الكاتبان القادران، العقاد، وهيكل، فإن عنايتهما بالموضوع الذى يعالجانه — وهما أقدر كتابنا جميعاً من الناحية الموضوعية — أقوى من عنايتهما بسمو الديباجة وإشراقها؛ وبالديباجة يعنى أشد العناية، الكاتبان الكبيران، المازنى، وتوفيق دياب.

وإذا كان الذين ذكرتهم من الناثرين قد كتب لهم الخلود فعلا، فقد كنت أود أن أرشح للخلود بجانبهم بعض الناثرين من الشباب، لكنى أراهم مع الأسف لا يولون هذه الناحية من الأدب الرفيع ما تستحقه من اهتمام، ولا أجد بينهم من يحاول أن يبلغ فى هذا الفن الجليل درجة الكمال.

أما الشعراء، فإذا تجاوزنا الذين بلغوا القمة من زمان بعيد، كمطران والعقاد والجارم ومن إليهم، فإن لدينا ممن يلونهم شعراء لا شك أنهم سيبلغون فى العالم العربى أعلى مكانة. ولست أدرى من يكون أولهم؟ فى بعض المواقف يمتاز أحدهم، ثم يبزه سواه فى موقف آخر. وقد يتفوق عليهما زميل ثالث فى موقف جديد؛ لهذا تصعب المفاضلة بينهم. فهل يكون الأول ناجى، أم طاهر أبو فاشا، أم غنيم، أم الموضى الوكيل، أم الغزالى، أم حمام، أم الصاوى شعلان؟

وكثيراً ما تفوق الحناوى ومخيمر والجرنوسى والجنبلاطى وعبد المنعم إبراهيم وشمس الدين وغيرهم.

وهنا كلمة لا بد منها، وهى أن هؤلاء الذين نوهت بهم، هم من شعراء جامعة أدباء العروبة، وليس المقصود بشعراء الجامعة أعضاء مجلس إدارتها وحدهم، فإن لها أعضاء أنصاراً، كالشاعرين الكبيرين رامى والأسمر، وهما من أكبر شعراء هذا الجيل.

وإنى لحريص على أن أصحح فهما خاطئا سرى إلى بعض الأذهان وأثار حملات لا مبرر لها، فأقول إنى لا أحتكر لرجال جامعة أدباء العروبة المجد الأدبى فى هذا العصر، وإن كانوا فى الحقيقة أقوى مجموعة عرفها التاريخ الأدبى الحديث، وأنا أعد الجامعة

مكونة من أعضائهـا العاملين ومن أنصارها جميعا . . أما أعضاء مجلس إدارتها فهم فوق مقدرتهم الأدبية الممتازة ، أنشط الأدباء وأشدهم دأبا ، وأغزرهم إنتاجا ، وأكثرهم مثابرة على خدمة الأدب والأدباء ، وتنظيم المهرجانات ، وإحيائها بخطبهم وقصائدهم التي يحملها المذياع إلى دنيا العروبة فتملأ مسامع الملايين في سائر الأقطار العربية ، وتحفز النفوس إلى طلب المجد ، وتغرس فيها الشجاعة ومكارم الأخلاق .

وإن لشعراء الجامعة لآثارا أدبية جديرة بالخلود ، أراني فخوراً بأن أعرض ما يحضرني منها في هذه الساعة .

فهذا ناجي يقول في « الغريب » .

يا قاسيَ البعد كيف تبتعد ؟   إني غريب الديار منفرد
إن خانني اليوم فيك قلت غد   وأين مني ومن لقاك غـــد
إن غـداً هوة لنا ظرها   تكاد فيها الظنون ترتعد
أطل في عمقها أســـائلها   أفيك أخفى خيـاله الأبد ؟
يا لامس الجرح ما الذي صنعت   به شـــفاه رحيمة ويد ؟
مـلء فؤادي لظى وأعجبه   أني بهـــذا اللهيب أبترد !

ومن شعره الوطني :

مر الغزاة بمصر وانتهوا زمرا   فأين بالله تيجان ودولات
كأن صخرة أقـدار تحطمهم   وما من القدر المحتوم إفلات
مروا ومصر على التاريخ باقية   كأنما حولهـا للنور هالات
فاعجب لمنطق أذيال يقوم له   محض من الزور وشـته الضلالات
ومسرح في الليالي لا جديد به   لـكن يعاد عليه الذئب والشاة

ومن شعر طاهر أبي فاشا في قصيدة وطنية نظمها لدى عودة دولة النقراشي باشا من أمريكا بعد دفاعه المجيد عن قضية مصر في مجلس الأمن :

ألق عن وجهها الغضوب النقابا   لا تخاصم إلى الذئاب الذئابا
أمر الأمر فادّرعهم شيوخا   عاقروا الصبر وادّرعهم شبابا
وأدر لحنك الذي أيقظ الثو   رة واحمر في صهده الأعصابا
أمة تنشد الســـلام فما با   ل حمام السلام أمسى غرابا ؟
والذي يطلب الحياة سـلاما   كالذي يطلب الحيـاة سرابا

ومن شعر غنيم في قصيدة « ثورة على الضارة » .

ذرعتم الجو أشـباراً وأميالا   وجبتم البحر أعماقا وأطوالا
فهل نقصتم هموم الـكون خردلة   أو زدتموه نعيم الـكون مثقالا
يا طالمـا حدثتني النفس قائلة   أنحن أسعد أم أجدادنا حالا ؟

ومن قصيدة له في الـكلب البوليسي « هول »

كلب ينم على الجنـــاه   تمشي العـــدالة في خطاه
إن قال أرهفت النيا   بة سمعها وصغى القضاه
قد بات يرعى الأمن « هو   لُ » وغيره يرعى الشياه
شيخَ الـكلاب أخفت ذئـ   ب الإنس لا ذئب الفـلاه
وأنفت من صيـــد البزا   ة فصـدت صياد الـبزاه
وسلبت كلب الـكهف ما   بيديه من عـــز وجاه
لم تقض في النوم الحيـا   ة كما قضى فيهـا الحياه
إن طوقوك فطالمـــا   طوقت أعنـاق الطغـاه

ومن قصيدة لحام في « القمر »

ويا رقيبا على العشاق مؤتمنا   السر عندك مكنون ومدخر
ويا رسولا من الماضي الرهيب إلى   من كان يخشع للماضي ويدّكر
ويا شهيداً على أعمـالنا يقظا   عدلا ، ويا مقلة يرنو بها القدر
يا من يعيش بأعمـار مجددة   وكل يوم يرى الأعمار تختصر
يا قيصرا عرشه الدنيا وما وسعت   وجنده الأنجم الوضاءة الزهر
يا صورة من جمال الله مشرقة   والشاعر الحق تسبي لبه الصور
إليك يا بدر عتبا كنت أكتمه   فالآن يا بدر لا كتم ولا حذر
أتذكر الحرب إذ ثارت جهنمها   وطار منهـا على آفاقنا شرر
وكنت للخصم جاســـوسا فكم نزلت   على هـــدى نورك الغارات والغير
قد سخروك لشر ما خلقت له   لا تأس يا بدر إني عنك أعتذر !
كم ليلة لحت فيها شاحبا أرقا   كأنما شفك التطويف والسهر
أوضقت بالظـــلم يغشى الأرض قاطبة   أأنت مثلي طريد الظـــلم يا قمر ؟!

ومن شعر عبد المنعم إبراهيم في العروبة

الجود والحلم والأقدام والأدب   شمـائل علمتها للورى العرب
الصيد إن ركبوا والصقر إن طربوا   والعفو إن غلبوا والنار إن غضبوا
السحر ما كتبوا والطهر ما شربوا   والبحر ما وهبوا ، والأمر ما رغبوا

هذه شواهد من أشعارهم ، بل أزهار من رياضهم ، وإن لهم ولإخوانهم لبدائع وروائع ، زادهم الله اتقانا وإحسانا ، وجعلهم للأدب والعروبة أسنادا وأركانا .

إبراهيم دسوقي أباظه

صور من الحياة

للدكتور عبد العزيز برهام

(إن قول الحق لم يدع لي صديقاً)
(أكثم بن صيفي)
لا يجرح غير الحقيقة (مثل فرنسي)

جمعتني الصدفة بصديق قديم كنت آخذ عليه دائماً إخلاف المواعيد . زرته في مقر عمله فوجدت عنده عدداً عديداً من الزوار كلهم يرجوه في أن يشفع له عند فلان أو فلان في أمر كذا أو كيت ، ورأيته يمنيهم جميعاً بقضاء حاجاتهم ، فيخرجون من لدنه ، وقد امتلأت نفوسهم بالآمال ، وظنوا أنفسهم قاب قوسين أو أدنى من بلوغ المرام . ولكنهم ما كادوا يبرحون مكتبه حتى تنفس الصعداء ، والتفت إليّ وعلى شفتيه ابتسامة ثم قال : أفّ لهؤلاء الناس ! أيظنونني عبداً مسخراً لهم ؟ ما أكثر ما هم عليه من بله ! قلت : وماذا يحملك على أن تمنيهم كل هذه الأماني ؟ قال : وماذا يضيرني ، وقد بلغ الحمق بالناس أن يصدقوا كل ما يقال لهم ؟ أولا يسرك أن تراهم وقد خشعت أبصارهم أمامك ، وانخفضت أصواتهم ، وبدت عليهم الذلة والمسكنة ، وهم يضرعون إليك بالرجاء ؟ قلت : وأي لذة في هذا ؟ قال : إن فيها لذة لا يشعر بها إلا من مر بمثل ما أمر به . قلت : أما آن لك أن ترعوي يا (نيرون) زمانه ؟ قال : وأنت ! أما آن لك أن تقصد في نصحك ؟ قلت : بلى . ثم افترقنا .

انقضت ثلاثة أشهر لم أر فيها صديقي ، ثم عدت إليه أزوره ، ولشد ما كانت دهشتي عند ما رأيت بين زواره فريقاً ممن رأيتهم عنده من قبل يطلبون شفاعته ، وإذا به يعود فيعدهم ويمنيهم . لم أطق صبرا على رؤية هذه المسرحية الموجعة ، فلت عليه بعد أن صرف واحداً منهم بالحسنى ، وكنت أرى في مظهره ما يستاهل المساعدة : أتنوي حقاً قضاء حاجة هذا الرجل ؟ فقال ، وهو يهمس في أذني : وكيف لي بقضاء ما يطلب ؟ إنه يطلب أن أعينه في وظيفة ممرض ، وأنا لا أعرف من أطباء الصحة أحداً . قلت : ففيم إذن كل هذه الأماني المعسولة ؟ قال : دعه ، فستنجلي له الحقيقة يوماً ما ، وسيريحني من تردده الممل عليّ . قلت : ولماذا لا تصارحه بها ؟ قال : يالك من غر ! أتريد أن أقول له إنني لا أعرف من أطباء الصحة أحداً ؟ قلت : ولم لا ؟ قال : هذه حماقة لا أرضاها لنفسي .

لم أكد أسمع منه هذا الحديث حتى بعثت فاستدعيت الزائر الذي انصرف ، وكان لا يزال على مرأى منا ، وقلت له على مسمع من الجالسين : أيها الأخ ! إن فلاناً هذا يأسف لأنه لن يستطيع قضاء أمرك ، فهو لا يعرف أحداً من أطباء الصحة .

فوقف الرجل مشدوهاً من سماع هذه الكلمات ، وهو لا يكاد يصدق ما يسمع ، وكأن لسان حاله يقول : ففيم إذن كانت كل هذه المقابلات ؟ وانتفض صديقي انتفاضة تدل على الغضب البالغ فلقد فوجيء بما قلت . ثم التفت إليّ يقول : هذا لا يليق بي أن تقوله . هذه إهانة لا أقبلها منك . قلت : أو ليس ما قلت حقاً ؟ قال : وما كل حق يقال . قلت : ولكن هذا الرجل يجب أن يعرف إلى أين يسير ؟ قال : لا شأن لك بي وبأموري . ثم مدّ إليّ يده وهو يقول : وداعاً ، يا صديقي . فوقفت وانصرفت وأنا أقول : وداعاً لا لقاء بعده .

* * *

وأردت أن أتزوّج ، فأوصيت كل من تصلني بهم صلة أن يمدونني في البحث عن « نصفي الثاني » . ثم طرقت بابي ذات مساء سيدة هي مني بمنزلة الوالدة ، ووجهها يطفق بشراً . وما كادت عينها تقع عليّ حتى صاحت : أبشر يا صاح ! فقد وجدت ضالتك المنشودة . إنها فتاة في ريعان الشباب ومقتبل العمر ، من أسرة كريمة ، وإن لم تكن غنية . قلت : وهل نقلت إليهم ما تعرفين عني ؟ قالت : لقد قلت عنك كيت وكيت ، وقلت إنك تملك خمسين فداناً . قلت : في أي بلد ؟ قالت : لا أدري . قلت : فكيف إذن قلت ذلك وأنت تعلمين أنني لا أملك قيراطاً واحداً ؟ قالت : أو لست جديراً بأن تملك هذا القدار وأكثر منه ؟ قلت : الجدارة شيء والواقع شيء آخر . وما كان لك أن تقولي غير الحقيقة .

التقيت بأصهاري « الجدد » وكان استقبال بالغ الحفاوة ، وترحيب لا نظير له ، ثم اتفقنا على كل شيء ، ولكن ... وما أقسى لكن هذه ! دار بخلدي أن هؤلاء الأصهار « الجدد »

أساتذة الجيل :

أحمد تيمور باشا

للأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف

« إلى الصديق الكريم ، والباحث المحقق ، الدكتور محمد سامي الدهان ، وفاء بما وعدته من الإفاضة ... في الحديث عن أولئك الأساتذة الأماثل الذين مهدوا الطريق أمام هذا الجيل ... »

تيمور ، بفتح التاء ، ويحققها بعض العلماء بالكسر ، كلمة تركية ينطقها الأتراك في لغتهم دمير أو دمور ، ومعناها عندهم الحديد ، وكانت تستعمل لقب تمجيد في المملكة العثمانية ، والولايات التابعة لها ، وبها لقب السيد محمد كاشف جد الأسرة التيمورية ، وأول من وفد منهم إلى مصر ...

وأصل السيد محمد هذا من بلاد كردستان بولاية الموصل ، ويذهب آل تيمور في إثبات نسبهم إلى أنهم من أصل عربي اعتماداً على ما ذكره ابن الكلبي وابن خلكان ، من أن نسب الأكراد ينتهي إلى عمرو مزيقياء بن عامر بن ماء السماء ، أو ينتهي إلى عدنان كما ذكر بعض العلماء . على أن آل تيمور يذهبون من ناحية أخرى إلى أن جدتهم زوجة السيد محمد كاشف ، وهي السيدة عائشة الصديقية ، كانت كريمة السيد عبد الرحمن الاستانبولي ، وهو كما يقولون شريف النسب ، صريح العروبة ، كان يتولى الكتابة في الديوان السلطاني للسلطان سليم الثالث ، وكان السلطان يحبه ويقربه ويثق به ، فلما قتل السلطان فرّ إلى مصر ، وعاش في رعاية عزيزها محمد علي باشا مكرماً إلى آخر حياته ...

ولقد كان السيد كاشف جد الأسرة التيمورية من رجال السيف ، وقد جاء إلى مصر في رفقة محمد علي مع الجند الذين أرسلهم السلطان لتثبيت سلطة الخلافة العثمانية على مصر بعد خروج الفرنسيين منها واضطراب الأحوال فيها ، وقد كانت بينه وبين محمد علي في أول أمرهما صداقة ومودة . فلما تم الأمر

الذين سأكون واحداً منهم ليس من اللياقة أن أحبس عنهم حقيقة ترقي ، فجمعت أطراف شجاعتي « وصححت » المعلومات التي وصلتهم عني . وما كنت أدري أنني بهذا القول قد بخست في نظرهم من قدر نفسي ، فلم أكد أصل منزلي ، حتى لحق بي رسولي ، والغضب باد على وجهه ، وهو يصيح في وجهي : لقد أفسدت كل شيء ! قلت : ماذا ؟ قال : مالك وللحديث عن أطيانك ؟ لماذا لا تتركهم في ضلالتهم ؟ لقد اعتذروا من عدم قبولك صهراً لهم ، وفهمت أن السبب هو أنك قلت لهم إنك لا تملك شيئاً . أو ما كان الأحرى أن تموه عليهم حتى ينتهي كل شيء ؟ قلت : لا أستطيع . وإياك أن تفعل هذا مرة ثانية . قال : إذن فأعفني من هذه المهمة ووداعاً ياصديقي ! قلت : وداعاً

* * *

وكنت ذات يوم منهمكاً في عملي ، وقد قدرت للفراغ منه ساعة من زمان ، وإذا بزميل لي يقتحم علي الباب ، والبشر يطفح من وجهه ، ويقطع عليّ سلسلة أفكاري ، وهو يدندن بألفاظ لم أفهم لها معنى . ثم قال : أما تهنئني ؟ قلت : بلى ، ماذا أصبت ؟ قال : كنت مع المدير الآن أحمل إليه « توصية » من فلان باشا وقد وعدني بترقيتي في الشهر القادم . قلت : ولكننا لا زلنا على بعد ستة أشهر من الميزانية الجديدة ؟ قال : وما شأن الميزانية الجديدة الآن ؟ قلت : لأن الترقية إنما تكون على درجات خالية وقد استنفدت المصلحة في ترقياتها الأخيرة جميع ما لديها من درجات . قال : كيف ، وقد وعدني بما قلت لك ؟ قلت : لقد خدعك . قال : هذا محال ؛ وخير لك أن تبشر ولا تنفر . قلت : لقد أعذر من أنذر . قال : لا ، إنك تسيء بقولك هذا في تثبيط همتي ، ولا تود لي خيراً ؛ إن المدير لا يكذب . قلت : شأنك وما تريد . قال : الآن قد كشفت ما تنطوي عليه نفسك من حسد لي ، وحقد علي ، وكان أولى بك أن تفرح لفرحي . قلت : لو أن هناك ما يستحق الفرح . فانفلت زميلي من الغرفة حانقاً ولم أعد أرى وجهه . ثم مضى شهر أعقبه شهر آخر ، ثم تلته شهور أخرى وصاحبي لا يزال ينتظر الترقية الموعودة . ولكن هذا لم يحل دون تجنبه إياي ، ونشره بين زملائي أن فلاناً يكره الخير للناس ، ثم روايته القصة بصوره تؤيد ادعاءه . وما أقل المحققين للأخبار !

دكتور

عبد العزيز برهام

لمحمد على باشا فى الولاية على مصر ، قرب إليه صاحبه القديم ، وأخذ يعتمد عليه فى تنفيذ خططه وتدبيراته ، وقد كان ساعده فى حادثة الفتك بالمماليك فى مأدبة القلعة ، كما كان عضده فى إخماد ما كان من فتن وما قام من ثورات ، وكما أرسل محمد على ابنه طوسون على رأس الحملة المصرية لحرب الوهابيين أرسل برفقته السيد محمد ، فأبلى فى هذه الحرب بلاء حسناً ، وكان أن عينه محمد على كاشفاً على الشرقية ، وهو مثل منصب المدير فى هذه الأيام ، ومن ثم لزمه لقب كاشف وعرف به ، حتى إذا ما استقرت الأمور فى الحجاز عينه والياً للروضة الشريفة ، فبقى هناك خمس سنوات ، ثم عاد إلى مصر ، وتخلى عن الأعمال الرسمية ، ولكنه بقى مع محمد على على حسن الصلة والمودة . وفى أواخر حياته انقطع للعبادة ، وعكف على الأخذ بأسباب الصلاح والتقوى حتى توفى عام ١٨٤٨ م وهو فى حدود الثمانين من العمر ولم يترك من الخلف إلا ابنه إسماعيل .

لم ينشأ إسماعيل على غرار والده ، ولم يكن له مثل غرامه بالجندية وأساليب النضال ، ولكنه نشأ من صغره وفى طبعه الميل إلى العلم والأدب ، وقد عنى والده بإشباع رغبته ، فأحضر له المعلمين فى العلوم العربية والدينية ، وعهد إلى أحد رجال الترك الأفذاذ بتعليمه اللغة التركية وآدابها ، ولقد كان هذا التعليم المنزلى للعلوم الإسلامية والآداب التركية هو المظهر السائد بين الأسر الكبيرة فى مصر يومذاك ، إذ كانت روح الدولة إسلامية خالصة ، وكانت الصلة بين مصر وتركيا صلة خلطة ونسب ودين أكثر مما هى صلة حكم ، وكان رجال الحكومة كلهم أو جلهم من الأتراك ، وكانت الطبقة العالية تتكون من الأسر التركية التى وفدت على مصر فملكت الضياع والثروات والمناصب ، ومن ثم كانت اللغة التركية والآداب التركية لها مكانة كبيرة فى نفوس الخاصة ، وكانت الأسرات الكبيرة تحرص عليها وتراها غاية الكمال فى تثقيف أبنائهم وإعدادهم لمناصب الحكومة ودواوينها ، كما هو الشأن اليوم فى الحرص على تعليم الإنجليزية والفرنسية .

برع إسماعيل فى الإنشاء التركى ، وأخذ بحظ وافر من الثقافة التركية ، لهذا ولما كان من متانة الصلة بين والده وبين محمد على باشا ، فقد شمله محمد على بعطفه ، واتخذه كاتباً خاصاً له ، ثم عينه وكيلا لمديرية الشرقية التى كان والده كاشفاً عليها من قبل ، ثم زاد فى العطف عليه فعينه مديراً ، وظل إسماعيل فى هذا المنصب ينتقل من مديرية إلى أخرى . ولكن يظهر أن حياة الإدارة وما تقتضيه من الصرامة لم توافق طبعه الأدبى وإحساسه المرهف ، ولهذا سعى بنفسه عند محمد على فى التخلى عن هذا المنصب والعودة إلى الديوان فحقق له رغبته ... ولما تولى عباس باشا الأول عينه وكيلا لديوان كتخدا ، وكان أكبر دوان فى الحكومة المصرية ، وكان وكيله يعتبر أكبر رجال الدولة بعد الوالى ، فله الإشراف على جميع شئون الدولة مثل ما لرئيس الوزراء فى هذه الأيام ، ومنصب كهذا يقتضى لا شك من صاحبه كثيراً من اليقظة والحذر ، ولكن إسماعيل كما قلنا كان صاحب طبع أدبى لا يسنده فى مثل هذا المركز السياسى ، ولهذا لم يلبث أن عزل من هذا المنصب بوشاية كاشح ، غير أن عباس باشا تبين حقيقة الأمر فأعاده ناظراً لخاصته . ولما تولى سعيد باشا أرجعه إلى الديوان كما كان من قبل ، ولكنه لم يلبث أن استقال لإهانة لحقته من الوالى ، وكأن الرجل كان قد عاف الحياة الحكومية وشبع منها ، أو كأن ما أحاط به من ظروف اضطره إلى الخروج من الديوان الخديوى مرتين قد بغضه فى تلك الحياة فظل بقية عهد سعيد وشطراً كبيراً من عهد إسماعيل منعزلا عن الناس ، عاكفاً على كتبه وتدبير الأمور فى أملاكه ، وجعل من داره نادياً للسمر والمذاكرة مع أهل العلم والأدب .

وفى آخر حياته أنعم عليه إسماعيل باشا برتبة الباشوية ، واختاره ناظراً لخاصة ولى عهده توفيق باشا ، ولكنه توفى بعد ستة شهور من تولى هذه النظارة سنة ١٨٧٢م ولم ينجب إلا ابنتين كبراهما السيدة عائشة عصمت تيمور الشاعرة المعروفة ، وابنا هو المغفور له أحمد تيمور باشا ، كما ترك خزانة كتب تضم كثيراً من النوادر ، وخاصة فى اللغة التركية وآدابها ، ولكنها ضاعت وبعثرت ، ولم يبق منها إلا فهرسها ...

نشأ المغفور له أحمد تيمور يتيما ، لم ير والده ، ولم يتمتع بحنان الأبوة ، فقد ولد عام ١٨٧١ م ، أى قبل وفاة والده بعام واحد ، فتعهدته شقيقته الكبرى السيدة عائشة تيمور بالرعاية ، وتولته بالتثقيف ، والتعليم ، وكان الابن صورة ممتدة للأب فى هدوء الطبع ، والميل إلى العلم ، والشغف بالثقافة ، فدرس العلوم

الأولية على مدرسين خصوصيين بالمنزل ، ثم أخذ يدرس اللغة العربية على الشيخ رضوان محمد أحد العلماء المشهورين فى ذلك العهد واللغة الفرنسية فى مدرسة كليبر ثم على الأستاذ عبيد بك ، كما أخذ فى دراسة التركية والفارسية . وكان بطبعه ميالا إلى الإفادة والتحصيل ، فنبغ فى دراسة اللغات الأربع . وإذا كان أحمد تيمور لم يحضر عهد والده ولم يتمتع بتلك الندوة العامرة التى كان يقيمها فى بيته لمذاكرة العلماء ومسامرة الأدباء ، فإن الله قد هيأ له من ذلك ندوة أحفل فى دار ابن أخته محمود توفيق بك ، فكان يتردد عليها للافادة . ويحدثنا تيمور باشا بطرف من أخبار هذه الندوة فى الترجمة التى كتبها لصديقه محمد أفندى أكمل فيقول : « وكان أول التقائى بالمترجم فى دار ابن أختى محمود توفيق بك ، وهى إذ ذاك مجمع الأدباء ومحط رحال الفضلاء ، فلما رأيته استغربت شكله واستملحت محاضرته ، ثم رأيته يناقش الأدباء ويطارحهم الشعر ، فدنوت منه وكنت صغيراً فى أول الطلب ، وقد تعذر على فهم باب أفعل التفضيل ، وأجهدت نفسى فى درسين متواليين على تفهمه ، فلم يفتح على بشىء فيه ، فسألته عنه فأوضحه لى بعبارة سهلت على فهمه ، فكان بعد ذلك كثيراً ما يقول لى ممازحاً : إذا ذكرت شيوخك فاذكرنى معهم ولا تنسنى ... »

وهناك شيخان جليلان تلمذ عليهما أحمد تيمور ، وكان لهما أبعد الأثر فى توجيهه وفى ثقافته ، وكان رحمه الله يذكرهما دائماً بالإجلال والتبجيل ، أولهما العلامة اللغوى الشيخ محمد محمود الشنقيطى ، وثانيهما العلامة المنطقى الشيخ حسن الطويل .

أما الشنقيطى فقد كان تيمور باشا يقصد إليه فى داره ، ويجلس أمامه لتلقى الدرس ، وكان الوقت يطول به وهو متربع على الأرض ، فكان حينا يشعر بألم ويريد أن يبدل رجلا بأخرى يقول الشنقيطى له : لا تتألم يا أحمد ، فقد كنا نقطع بالراحلة شهوراً وراء البحث والاستقصاء عن مسألة علمية . ويحكى تيمور باشا عن نفسه فيقول : وأشار على مرة أستاذنا العلامة الشنقيطى أن أطالع أمالى أبى على القالى مطالعة إمعان وتدبر ، ولم تكن طبعت بعد ، فاستنسخت منها كراريس عكفت على مطالعتها ، واحتجبت عن الناس بضعة أيام ، حتى استوفيت ما بهذه الكراريس ...

وأما الشيخ حسن الطويل فيظهر أنه كان أشد خلطة وأعلق بنفس أحمد تيمور ، وهو يعتبره أستاذه الذى قومه وثقفه وأخذ بيده إلى الطريق المستقيم ، وقد كتب تيمور باشا ترجمة مطولة لهذا الأستاذ الفاضل أورد فيها سبب اجتماعه به وتحدث عن مدى انتفاعه بعلمه وفضله فقال : « أما سبب اجتماعى به وقراءتى عليه ، فإنى كنت خرجت من المدارس بعد تلقى ما يتلقى بها من العلوم المعروفة وأنا فى سن العشرين ، وقد علق بالعقيدة شىء من آثار التربية بهذه المدارس ، إلا أنى كنت مولعاً من الصغر بالإسلام ومحاسنه والمطالعة فى السيرة النبوية ، ومناقب الأصحاب والخلفاء الراشدين ، فكان ينشرح صدرى لأشياء وينقبض من أشياء تعرض لى فيها شبهات ، ثم كنت أعرض ما يظهر لى من مكارم الشريعة ومقاصدها على ما عليه الناس من البدع والمحدثات التى تمسكوا بها وجعلوها من الأصول الدينية ، فأجد التصادم والتناقض ، فصرت أتردد على كثير من كبار علماء الأزهر وغيرهم لعلى أجد عندهم مفرجاً ، فأراهم أحرص من العامة على هذه الخزعبلات حتى كدت أحكم بأنها من الدين ، وأن الأمر دائر بين شيئين : فإما أن يكون الدين دين خرافات وخزعبلات تنفر منها الطباع السليمة ، وإما أن يكون ما نراه حقاً ، ولكن يمنعنا من قبوله إلحاد تأصل فى النفس ، حتى أرشدنى بعض الأصحاب للمترجم ، فأخذت فى السؤال عنه من أهل العلم ، فكانوا ينفروننى منه حتى بالغ بعضهم ورماه بالزندقة ، فقلت : إذا كنت لم أجد طلبتى عند من تسمونهم بالصلاح والورع فلعلى أصيبها عند الزنادقة . ثم سعيت فى الاجتماع به ، وسألته القراءة عليه والاهتداء بهديه ، فقرأت عليه العلوم العربية والمنطق ، وأعدت عليه الصرف وعلوم البلاغة بتوسع ، ثم قرأت طرفاً من الحكمة . ولما رآنى مجداً فى التحصيل قرر لى درساً ثانياً بعد العشاء كنا نقرأ فيه كتب الأدب ونحوها .

وكان من عاداته الخروج إلى الريف كل خميس ترويحاً للنفس ، فكان يسافر إلى ضيعتنا التى بقويسنا أو إلى حلوان حينما نسكن بها شتاء ، فكنت أقضى معه هذين اليومين فى مطالعة واشتغال ، حتى فى حالة المشى والتنزه كنت أحمل الكتاب معى وأسمعه فيه ، فيقرر لى المسائل ونحن سائران . . . فكان اجتماعى به ومصاحبتى إياه من أكبر نعم الله علىّ فى دينى ، ولو لم يكن له علىّ سوى تصحيح العقيدة وتأديبى بآداب الحنيفة السمحة لكفى

« للحديث بقية »

محمد فهمى عبد اللطيف

من تاريخ الطب الإسلامي

لصاحب السعادة الدكتور قاسم غني
سفير إيران بمصر

— ٥ —

يقول ابن سينا في المقدمة المذكورة :

« وبعد » فقد نزعت الهمة بنا إلى أن نجمع كلاماً فيما اختلف أهل البحث فيه لا نلتفت فيه لفت عصبية أو هوى أو عادة أو ألف ، ولا نبالي من مفارقة تظهر منا لما ألفه متعلمو كتب اليونانيين إلفاً عن غفلة وقلة فهم ، ولما سمع منا في كتب ألفناها للعاميين من المتفلسفة المشغوفين بالمشائين الظانين أن الله لم يهد إلا إياهم ، ولم ينل رحمته سواهم ، مع اعتراف منا بفضل أفضل سلفهم (يعني أرسطو) في تنبهه لما نام عنه ذووه وأستاذوه ، وفي تمييزه أقسام العلوم بعضها عن بعض ، وفي ترتيبه العلوم خيراً مما رتبوه ، وفي إدراكه الحق في كثير من الأشياء ، وفي تفطنه لأصول صحيحة سرية في أكثر العلوم وفي إطلاعه الناس على مابينها فيه السلف وأهل بلاده ، وذلك أقصى ما يقدر عليه إنسان يكون أول من مدّ يديه إلى تمييز مخلوط وتهذيب مفسد ويحق على من بعده أن يلموا شعثه ويرموا ثلماً يجدونه فيما بناه ويفرعوا أصولا أعطاها فما قدر من بعده على أن يفرغ نفسه عن عهدة ما ورثه منه وذهب عمره في تفهم ما أحسن فيه والتعصب لبعض ما فرط من تقصيره ، فهو مشغول عمره بما سلف ، ليس له مهلة يراجع فيها عقله ، ولو وجدها ما استحل أن يضع ما قاله الأولون موضع المفتقر إلى ما زيد عليه أو إصلاح له أو تنقيح إياه .

وأما نحن فسهل علينا التفهم لما قالوه أول ما اشتغلنا به ولا يبعد أن يكون قد وقع إلينا من غير جهة اليونانيين علوم وكان الزمان الذي اشتغلنا فيه بذلك ريعان الحداثة ، ووجدنا من توفيق الله ما قصر علينا بسببه مدة التفطن لما أورثوه . ثم قابلنا جميع ذلك بالنمط من العلم الذي يسميه اليونانيون (المنطق) — ولا يبعد أن يكون له عند المشرقيين اسم غيره — حرفاً حرفاً فوقفنا على ما تقابل وعلى ما عصى ، وطلبنا لكل شيء وجهة فحق ما حق وزاف ما زاف .

ولما كان المشتغلون بالعلم شديدي الاعتزاء إلى (المشائين) من اليونانيين كرهنا شق العصا ومخالفة الجمهور فانحزنا إليهم وتعصبنا للمشائين إذ كانوا أولى فرقهم بالتعصب لهم — وأكملنا ما أرادوه وقصروا فيه ولم يبلغوا أربهم منه وأغضينا عما تخبطوا فيه ، وجعلنا له وجهاً ومخرجاً ونحن بدخلته شاعرون وعلى ظله واقفون . فإن جاهرنا بمخالفتهم ففي الشيء الذي لم يكن الصبر عليه ، وأما الكثير فقد غطيناه بأغطية التغافل . فمن جملة ذلك ما كرهنا أن يقف الجهال على مخالفة ما هو عندهم من الشهرة بحيث لا يشكون فيه ويشكون في النهار الواضح . وبعضه قد كان من الدقة بحيث تعمش عنه عيون هؤلاء الذين في العصر — فقد بلينا برفقة منهم عاري الفهم كأنهم خُشب مسندة يرون التعمق في النظر بدعة ، ومخالفة المشهور ضلالة كأنهم الحنابلة في كتب الحديث لو وجدنا منهم رشيداً أثبتناه بما حققناه — فكنا ننفعهم به ، وربما تسنى لهم الإيغال في معناه فعوضونا منفعة استبدوا بالتنفير عنها .

ومن جملة ما ضننا بإعلانه عارين عليه — حق مغفول عنه يشار إليه فلا يتلقى إلا بالتعصب . فلذلك جرينا في كثير مما نحن خبراء بعجدته مجرى المساعدة دون المحاقة . ولو كان ما انكشف لنا أول ما انصببنا إلى هذا الشأن لم نبد فيه مراجعات منا لأنفسنا ومعاودات من نظرنا — لما تبينا فيه رأياً ولاختلط علينا الرأي ومرى في عقائدنا الشك ، وقلنا لعل وعسى . لكنكم أصحابنا تعلمون حالنا في أول أمرنا وآخره وطول المدة التي بين حكمنا الأول والثاني ، وإذا وجدنا صورتنا هذه فبالحري أن نثق بأكثر ما قضيناه وحكمنا به واستدركناه ، ولا سيما في الأشياء التي هي الأغراض الكبرى والغايات القصوى التي اعتبرناها وتعقبناها مئين من المرات . ولما كانت الصورة هذه والقضية على هذه الجملة ، أحببنا أن نجمع كتاباً يحتوي على أمهات العلم الحق الذي استنبطه من نظر كثيراً وفكر ملياً ، ولم يكن من جودة الحدس بعيداً واجتهد في التعصب لكثير فيما يخالفه الحق فوجد لتعصبه وما يقوله وفاقاً عند الجماعة غير نفسه ، ولا أحق بالإصغاء إليه من التعصب لطائفة إذا أخذ يصدق عليهم فإنه لا ينجيهم من العيوب إلا الصدق .

وما جمعنا هذا الكتاب لنظهره إلا لأنفسنا — أعني الذين يقومون منا مقام أنفسنا — وأما العامة من مزاولي هذا الشأن

فقد أعطيناهم فى (كتاب الشفاء) ما هو كثير لهم وفوق حاجتهم، وسنعطيهم وفى اللواحق ما يصلح لهم زيادة على ما أخذوه، وعلى كل حال فالاستعانة بالله وحده».

ويظهر لنا من هذه المقدمة الفرق الشاسع بين المترجمين ومتتبعى فلسفة اليونان الذين كانوا يتلقون آراء فلاسفة اليونان فى جميع الأحوال بأحسن قبول ويعتبرون عقولهم منتهى ما يصل إليه العقل، وبين الحكماء أصحاب الرأى والنظر من المتأخرين أمثال ابن سينا ممن لم يكونوا يرون فى عقول فلاسفة اليونان أقصى ما يبلغه العقل البشرى ولم يكونوا يتقبلون آراءهم كحقائق لا تقبل الشك والجدل.

كان يرى الشيخ الرئيس أن فلسفة أرسطو تعتبر كاملة لزمان أرسطو فحسب، وأن للأجيال القادمة أن تبدى فيها رأيها تنقدها وتصحح ما تراه فيها من الخطأ كما كانت نظرة الرازى لآراء جالينوس فى الطب.

وهناك أمر آخر أرى من المناسب أن أشير إليه وهو أن ابن سينا لم يقتصر فى كتابه (الشفاء) وهو عن فلسفة المشائين — على نقل ما وصله من أقوال أرسطو عن طريق التراجم بل أنه (أى كتاب الشفاء) هو حاصل ما فهمه هو نفسه من فلسفة أرسطو.

اتصل أبو عبيد الجوزجانى تلميذ الشيخ وصاحبه وجامع أكثر كتبه بابن سينا فى جرجان وصاحبه حتى آخر أيام حياته أى ما يقارب خمسة وعشرين عاماً ولازمه فى كل حال وكل مكان لم ينفك عنه فى سفر أو حضر، وكان الراوى الثقة الذى نقل إلينا تاريخ حياة الشيخ.

يقول أبو عبيد هذا فى شرح أحوال الشيخ: «ثم سألته أنا شرح كتب أرسطو طاليس فذكر أنه لا فراغ له إلى ذلك الوقت، وقال ولكن إن رضيت منى بتصنيف كتاب أورد فيه ما صح عندى من هذه العلوم بلا مناظرة مع المخالفين ولا اشتغال بالرد عليهم، فعلت ذلك، فرضيت به».

وكان بعد محمد بن زكريا الرازى وقبل زمن الشيخ الرئيس ابن سينا طبيب آخر وهو على بن العباس المجوسى الأهوازى، وكان تلميذاً لأبى ماهر موسى بن سيار المجوسى وله كتاب جامع فى الطب اسمه (كامل الصناعة الطبية) ألفه وقدمه لعضد الدولة الديلمى الملقب بشاهنشاه أو ملك الملوك. وكان طبيبه الخاص ومن هنا سمى الكتاب بالملكى.

ينتقد على بن العباس فى مقدمة مؤلفه هذا — وهو من الآثار الخالدة فى الطب الإسلامى، جميع الأطباء الكبار الذين سبقوه.

نراه يقول فى المقدمة المذكورة:

فأما أبقراط الذى كان أمام هذه الصناعة وأول من دونها فى الكتب فقد وضع كتباً كثيرة فى كل نوع من أنواع هذا العلم، منها كتاب واحد جامع لكثير مما يحتاج إليه طالب هذه الصناعة ضرورة، وهذا الكتاب هو كتاب الفصول، وقد يسهل جمع هذه الكتب حتى تصير كتاباً واحداً حاوياً لجميع ما قد يحتاج إليه فى بلوغ غاية هذه الصناعة، إلا أنه استعمل فيه كسائر كتبه الإيجاز حتى صارت معان كثيرة من كلامه غامضة يحتاج القارىء لها إلى تفسير، وأما جالينوس المقدم المفضل فى هذه الصناعة فإنه وضع كتباً كل واحد منها مفرد فى نوع من أنواع هذا العلم وطول الكلام فيه وكرره لما احتاج إليه من الاستقصاء فى الشرح وإقامة البراهين والرد على من عاند الحق وسلك سبيل المغالطين، ولم أجد له كتاباً واحداً يصف فيه ما يحتاج إليه فى درك هذه الصناعة وبلوغ الغرض المقصود إليه منها للسبب الذى ذكرته آنفاً.

وقد وضع أوريباسيوس كتباً وكذلك فولس الأجنطى ورام كل واحد منهما أن يبين فى كتابه جميع ما يحتاج إليه، فوجدت أوريباسيوس قد قصر فى كتابه الصغير الذى وضعه لابنه (أوناقس) وإلى عوام الناس، فلم يذكر فى الكتاب الذى وضعه لابنه (اسطات) فى تسع مقالات فإنه لم يذكر فيه شيئاً من الأمور الطبيعية التى هى الاستقصات من الأمزجة والأخلاط والأعضاء والقوى والأفعال والأرواح إلا اليسير، ولم يذكر فى هذين الكتابين شيئاً من العمل باليد؛ فأما كتابه الكبير الذى وضعه فى سبعين مقالة فلم أجد فيه إلا مقالة واحدة فيها ذكر تشريح الأعضاء. وأما فولس فلم يذكر فى كتابه من الأمور الطبيعية إلا اليسير. وأما أمر الأسباب والعلاقات وسائر أنواع المداواة والعلاج باليد فقد بالغ فى بيانه؛ إلا أنه لم يذكر ما ذكره فى كتابه على طريق من طرق التعليم. وأما المحدثون فلم أجد لأحد منهم كتاباً يصف فيه جميع ما يحتاج إليه فى مداواة

الأمراض والعلل وأسبابها وعلاماتها وما سوى ذلك فذكره على جهة الإيجاز من غير شرح واضح؛ ومع ذلك فإن ترجمته ترجمة سوء رديئة تعمى على القارئ له كثيراً من المعاني التي قصد إلى شرحها ولا سيما من لم ينظر في ترجمة حنين وأشباهه. وأما يوحنا بن سرابيون فإنه وضع كتاباً يذكر فيه شيئاً سوى مداواة العلل والأمراض التي تكون بالأدوية والتدبير ولم يذكر العلاج الذي يكون باليد، وترك أشياء كثيرة من العلل ولم يذكرها من ذلك أنه ترك من علل الدماغ ذكر العلل المعروفة بالقطرب والعشق والاسترخاء الحادث عن القولنج ولم يذكر في علاج العين مداواة النتوء على ما ينبغي ولم يذكر علاج السرطان في العين وغير ذلك من علل الأجفان.

وأما مسيح فإنه وضع كتاباً نحا فيه النحو الذي نحاه هرون في قلة شرح الأمور الطبيعية والأمور التي ليست بطبيعية مع سوء ترتيبه لما وضعه في كتابه من العلم وقلة معرفته بتصنيف الكتب.

وأما محمد بن زكريا الرازي فإنه وضع كتابه المعروف بالمنصوري وذكر فيه جملا وجوامع من صناعة الطب ولم يغفل عن ذكر شيء مما يحتاج إليه، إلا أنه لم يستقص شرح ما ذكره لكنه استعمل فيه الإيجاز والاختصار وهذا كان غرضه وقصده فيه؛ فأما كتابه المعروف بالحاوي فوجدته قد ذكر فيه جميع ما يحتاج إليه المتطببون من حفظ الصحة ومداواة الأمراض والعلل التي تكون بالتدبير بالأدوية والأغذية وعلاماتها، ولم يغفل عن ذكر شيء مما يحتاج إليه الطالب لهذه الصناعة من تدبير الأمراض والعلل؛ غير أنه لم يذكر فيه شيئاً من الأمور الطبيعية كعلم الاستقصات والأمزجة والأخلاط وتشريح الأعضاء ولا العلاج باليد ولا ذكر ما ذكره من ذلك على ترتيب ونظام ولا على وجه من وجوه التعاليم ولا جزأه بالمقالات والفصول والأبواب. والذي يقع لي من أمره وأتوهمه على ما يوجبه القياس من علمه ومعرفته لصناعة الطب وتصنيف الكتب وفهمه في هذا الكتاب إحدى الحالتين: إما أن يكون وضعه وذكر فيه ما ذكر من جميع علم الطب ليكون تذكرة له خاصة يرجع إليه فيما يحتاج من حفظ الصحة ومداواة الأمراض عند الشيخوخة ووقت الهرم أو النسيان أو خوفاً من آفة تعرض لكتبه فيعتاض منها بهذا الكتاب، وكذلك لكثرة تجريده التآليف من التعظيم، وإما أن ينتفع الناس به ويكون له ذكر حسن من بعده، فعلق جميع ما ذكره فيه تعليقاً ليعود فيه فينظمه ويرتبه ويضيف كل نوع منه إلى ما يشاكله ويثبته في بابه على ما يليق بمعرفته لهذه الصناعة فيكون الكتاب بذلك كاملا تاماً فعاقه عن ذلك عوائق وجاءه الموت قبل إتمامه؛ فإن كان إنما قصد به هذا الباب فقد طول فيه الكلام وعظمه من غير حاجة اضطرارية دعته إلى ذلك حتى قد عجز أكثر العلماء عن نسخه واقتنائه إلا اليسير من ذوي اليسار من أهل الأدب فقل وجوده، وذلك أنه ذكر في صفة كل واحد من الأمراض وأسبابه وعلاقاته ومداواته ما قاله كل واحد من الأطباء القدماء والمحدثين في ذلك المرض من أبقراط وجالينوس إلى إسحق بن حنين ومن كان بينهما من الأطباء القدماء والمحدثين ولم يترك شيئاً مما ذكر كل واحد منهم من ذلك إلا أورده في هذا الكتاب وعلى هذا القياس فقد صارت جميع كتب الطب محصورة في كتابه هذا.

وأما أنا فإني أذكر في كتابي هذا جميع ما يحتاج إليه في حفظ الصحة ومداواة الأمراض والعلل وطبائعها وأسبابها والأعراض التابعة لها والعلامات الدالة عليها مما يستغنى الطبيب الماهر عن معرفته إلى أن يقول (وأنا ممثل لك مثالا للطريق الذي أسلكه في كتابي هذا من صفة الأمراض وأسبابها وعلاماتها ومداواتها وأجمل ذلك في ذات الجنب).

(يتبع)

منارة الماضي :

زيارة لحصن الأكراد

أدب وحرب

للأستاذ أحمد رمزي بك

(تتمة ما نشر في العددين السابقين)

٣٩ — ويرجع الفضل إلى إحراز هذا النصر إلى عقيدة القضاء على الفرنج وإنهاء الحروب الصليبية إنهاء تاماً ، تلك العقيدة التي تملكت عقول الجنود والقواد وملوك مصر منذ بدأ بيبرس حملاته والتي تتلخص في الاستيلاء على الحصون والقلاع وعدم ترك الفرصة حتى تسترد الولايات اللاتينية استعدادها مرة أخرى ، وعليه أفرغ كتاب الفرنج جعبة شتائمهم على هؤلاء الأبطال ، وكتب جيبون يرثي الحروب الصليبية يقول : « ساد سكون محزن غريب مظلم على طول ذلك الشاطئ الذي ظل زماناً طويلا تتردد فيه أصداء النزاع العالمي وتمر عليها كتائب المقاتلة »

٤٠ — أنشأ الصليبيون معاقل وأبراجاً في الحصون التي احتلوها تشهد لهم بطول الباع والأناة وللعرب والبيزنطيين ، بل وللفرس وغيرهم آثار تشهد لهم أيضاً :

وهذا فن بهم أربابه ، وقد أخرجت البعثة الفرنسية حجارة نحتها العرب وأخرى نحتها الفرنج من أسوار حصن الأكراد ، وفي أسوار قلعة القاهرة من الحجارة ما نحته أسرى الفرنج ، فقد كانت الطريقة المتبعة استعمال الأسرى في هذه الأعمال .

٤١ — وقد استعمل حصن الأكراد وغيره من الحصون في فترات الهدوء التي دامت بين هجومين عظيمين : استعمل كرأس حربة مدة احتلاله بالصليبيين لإدخال الرعب في قلوب المسلمين ، ثم كلجأ يلجأ إليه المقاتلة والفرسان بعد عودتهم من حملة موفقة ليستجموا ويستعيدوا قوتهم ليعودوا مرة أخرى إلى الغزو .

٤٢ — وقد بقي حصن الأكراد ١٣٠ عاماً وهو رأس حربة كما قلنا يهددون بها حمص وما حولها ، ويحولون دون المسلمين والاتصال بالجهات التي تحت حكمهم في بعلبك والبلاد الأخرى المجاورة لها .

٤٣ — ولما شعر المسلمون بأهمية هذا الموقع العسكري وأذاه في صفوفهم لجأوا إلى نور الدين الشهيد صاحب دمشق الذي جمع جنوده في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ونزل تحت حصن الأكراد ، فبينما هو في معسكره وفي وسط النهار ، دهمته كتائب الفرنج من خلف الجبل القائم عليه الحصن ، وأحاطت بالجيش الإسلامي وهو على غير أهبة فأعملت فيه السيف ، وقصد الافرنج خيمة العادل نور الدين ، فكاد أن يقع أسيراً لولا رباطة جأشه وسرعة خاطره إذ خرج من الباب الخلفي وركب فرساً للنوبة ، وكانت بقيدها الخلفي فنزل أحد أتباعه من الأكراد فحلها وقتل لساعته ، ولولاه لوقع نور الدين في الأسر .

٤٤ — وفي هذه الحادثة بالذات يقول أبو الفرج عبيد الله ابن سعد الموصلي من قصيدة فائقة :

بني الأصافر ما نلتم بمكركم والمكر في كل إنسان أخو الفشل
وما رجعتم بأسرى خاب سعيكم غير الأراذل والأتباع والسفل
هل آخذ الخيل قد أردى فوارسها مثال آخذها في الشكل والطول
أم سالب الرمح مركوزاً كسالبه والحرب دائرة من كف معتمل

وفيها يخاطب نور الدين :

لا نكبت هتك الأقدار عن غرض ولا ثنت يدك الأيام عن أمل

٤٥ — وبرغم ما في القصيدة من محاولة الاعتذار أمام الهزيمة والفرار ، فإن العملية الحربية الصليبية كانت ناجحة إذ تجلى فيها عنصر المفاجأة وظاهرة السرعة بدليل تتبع المنهزمين حتى حمص . والفضل للموقع الممتاز لحصن الأكراد ، ذلك الموقع الذي أتعب المسلمين أكثر من قرن من الزمن كما قلنا .

٤٦ — ولدينا من قبيل هذا المقال الكثير من الهجمات والمتاعب التي سببتها حامية حصن الأكراد الصليبية لمدينتي حمص وحماة وغيرهما من بلاد المسلمين .

ففي عام ٥٩٩ زحف الفرنج من حصن الأكراد إلى مدينة حماة فركب صاحبها وحاربهم في رمضان . وجاء في السلوك ضمن حوادث سنة ٦٠٣ أن الملك العادل الأيوبي صاحب مصر خرج من مصر إلى العباسة ومنها إلى دمشق ثم برز إلى حمص ، وذلك

عقب الحملات المتتالية التي شنتها حامية حصن الأكراد وتمدد الغارات على كل من حمص وحماة، ونازل الحصن وأسر خمسمائة رجل من أطرافه. ولقد نازله قبله صلاح الدين وغيره من ملوك المسلمين ولكنها كانت جميعاً حملات تمرضية استكشافية، أو إذا شئت تأديبية ضد المقاتلين من جماعة الصليبيين المستحكمين في هذه القلعة ولم يعقبها حصار كامل الأهبة والاستعداد كما حدث بعد ذلك.

٤٧ — وقد بقي هذا الحصن قذى في أعين المسلمين يهدد بلادهم حتى تم فتحه في عام ٦٦٨ هجرية على يد الملك الظاهر بيبرس سلطان مصر وصاحب الفتوحات وهو ما سنفرد له فقرة خاصة تأتي بعد ذلك.

٤٨ — وقبل أن يتم الفتح على يديه اتبع طريقة أسلافه، وهي المجاب التمرضية السريعة لجس نبض الحامية واستنفارها للخروج من وراء الخنادق والأبراج؛ ففي هذا العام أي في ٣ جمادى سنة ٦٦٨ ركب الملك في مائتي فارس وأغار على أطراف الحصن ثم صعد إلى الرابية ومعه قدر أربعين من الفرسان فخرج عليه عدة من الفرنج ملبسين بالدروع فحمل عليهم وقاتلهم وتتبعهم حتى دخلوا الحصن. وتقول الرواية إنه صاح بهم ليدعوا رفقاءهم إلى الخروج، وأشار إلى عدد من معه وأنهم جميعاً بأقبية بيض أي غير مدرعين بالزرد والحديد.

وتشير الرواية إلى أنه عاد إلى مخيمه وأطلق الخيول في المروج الخضراء والمزارع التي كانت حول الحصن.

٤٩ — وكانت هذه آخر الحملات التأديبية إذ سقط الحصن بعدها في أيدي الملك الظاهر الذي بادر إلى ترميمه وإعادة إصلاح أبراجه وخنادقه واتخاذه نقطة ارتكاز لجيوشه في عملياته الحربية ضد الفرنج المحتلين لمقاطعة طرابلس، فأصبح حصن الأكراد رأس حربة موجهاً إلى الغرب بعد أن كان موجهاً إلى الشرق أي إلى قلب الأراضي الإسلامية.

٥٠ — ولهذا الوضع أمثلة في الحروب الحديثة فإن الزائرين لمنطقة جبال الكارسو في شمال إيطاليا لابد عاينوا الحصون الكائنة في جهة سان ميشيل وسابوتينو حيث لا تزال أماكن المدفعية التي استعملها النمسيون وأماكن تلك التي استعملها الإيطاليون بعدهم ظاهرة.

٥١ — وتحدثنا الرواية بالتفصيل عن بعض ما قام به الملك الظاهر فقد أمضى أياماً في الصيد، وكان يصنع السهام بيده وريش النشاب، وكان يحضر العمارة بنفسه ويشحذ همم العمال ويشجعهم بل كان يشمر وينقل الحجارة على كتفيه، وكان ينزل في الخندق ويحفر بيديه. ولما أتم العمارة وأعاد تركيب المنجنيقات أمر بتجربتها أمامه ليعرف أماكن سقوط حجارتها ومدى إصابتها للأهداف.

٥٢ — وتنتظم الحياة مرة أخرى بحصن الأكراد إذ تولى القيادة فيه الأمير حسام الدين قيماز الذي مر ذكره: وأطلق عليه اسم نائب حصن الأكراد والسواحل والفتوحات على رأس حامية مؤلفة من ٥٠٠ جندي وعشرة أمراء طبلخانة و ١٥ أمير عشرة

٥٣ — وبمقارنة هذه الحامية تظهر أنها أقل مما كان يحتل الحصن من جنود الصليبيين إذ كانت تتراوح بين ٢٠٠٠ و ٣ آلاف وهؤلاء يدخل بينهم الخدم والزراع وطوائف من أهل البلاد.

٥٤ — وبعد حسام الدين قيماز تعين سيف الدين بلبان الطباخي ثم الأمير علم الدين سنجر الدواداري. وبوسع المهتمين بالتاريخ المصري استكمال هذا الكشف حتى يكون مكملا للكشف الذي ضم أسماء من تولوا القيادة بالحصن أيام الاحتلال الصليبي.

٥٥ — انتهى الحصن في عهد المنصور قلاوون إلى أن أصبح مركز تجمع الجيوش التي حشدت هناك للزحف على مقاطعة طرابلس، وكان الطباخي يقود الحامية من البرج الذي كان يحتله عميد الاستبار، ويبعث بطلائعه لاكتشاف الأماكن التي نزلها الجنود قبل حصار طرابلس.

٥٦ — وفي عهد الملك الأشرف خليل بن قلاوون اشتركت الحامية في أعمال الحصار الرائعة حول مدينة عكا وقد قامت ومعها المجانيق التي ركبها الملك الظاهر ومن بينها منجنيق هائل أطلق عليه اسم المنصوري.

٥٧ — أتينا بصورة من الحياة والقتال في الحصن في العهدين الصليبي والإسلامي لكي تسهل المقارنة وتركنا فتح الحصن على أيدي المسلمين جانباً حتى لا يكون فاصلا يضيع المقارنة بين العملين.

٥٨ — فقد أشرنا إلى عملية قام بها الملك الظاهر تشبه الهجمات التى اعتادها ملوك المسلمين وأمراؤهم ولم يكن يرمى من ورائها إلى هدف معين . وسنرى فى حملته على حصن الأكراد كيف يلجأ إلى أساليب المفاجأة والسرعة وتضليل الخصم .

٥٩ — فى السنة التى أتم فيها الملك الظاهر إنشاء الجسر والقناطر القائمة بقرب شبرا ، قرر فتح حصن الأكراد الذى استعصى على غيره من الملوك والأمراء .

٦٠ — وإليك برنامج السفر : غادر القاهرة فى ١٨ جمادى الآخرة ، وصل دمشق الخميس ١٨ رجب ، وفى المدة السابقة لوصوله أى بين ١٨ جمادى و ١٨ رجب أشغل العدو إذ ابتدأت الحملات الخاطفة ضد قلاع الصليبيين فى :

جبلة . وسقطت حصون اللاذقية . صافيتا . المرقب . الجدل . القليمات . طرطوس :

٦١ — فى يوم ١٩ رجب الموافق ٣ مارس سنة ١٢٦٧ تجمعت قوات الملك الظاهر أمام حصن الأكراد .

ونلاحظ فى هذه الأعمال اختفاء الهدف الرئيسى حتى اللحظة الأخيرة .

٦٢ — جاء إليه ابنه الملك السعيد والأمير بيليك الخازندار وبمجرد وصولها بدأت أعمال الحصار : إذ أخذت الجنود فى نصب المجانيق وعمل الستائر لحماية الرماة .

٦٣ — اقتحمت الأسوار الثلاثة على التوالى عنوة ما عدا البرج الأخير الذى استحكم فيه فرسان الاسبتار حتى آخر مراحل الحصار .

٦٤ — فى ٧ شعبان سقطت الباشورة الثانية التى تؤدى إلى الحصن الداخلى ، ودخلت العساكر البلد بالسيف وأسروا من فيه من الجبلية والمزارعين ثم أطلقوهم .

٦٥ — وفى يوم الاثنين الثالث والعشرين من شعبان طلبت الحامية الأمان فأمنهم الظاهر وتسلم البرج الأخير فدخله وكتبت البشائر وترتب أرباب الوظائف بالحصن من جهة المملكة المصرية أى النواب والقضاة وبقى بيد مصر حتى دخول السلطان سليم ديار الشام ، فزال ملك مصر عنها كما زال عن غيرها من البلاد .

* * *

٦٦ — هذا هو حصن الأكراد الذى توجهنا لزيارته وسرنا بأقسامه ، ووقفنا أمام أبراجه ، وفيها أبراج بناها المنصور قلاوون ، ولا تزال الأسماء والآيات القرآنية كما كانت .

٦٧ — ودخلنا أماكن الخيول ، وقد كشفت عنها البعثة الفرنسية فرأينا ما أدهشنا : أثر حوافر الخيل ومواضع ربطها والحديد الذى كانت تشكل به . لقد كان الردم يغطى كل هذا ، ولما أخرجته يد الإنسان من تحت التراب إذا به كما كان يوم تركه أصحابه منذ مئات السنين .

٦٨ — وكان للحصن آبار ومجار للمياه حينما كشف عنها وجدت أوانى من النحاس من عصر الملك الناصر محمد ورؤوس النبال والرماح .

وعدت من الحصن وقد غمرتنى نفحة من تلك النفحات التى تؤذن بخروج الإنسان من طور ودخوله إلى طور جديد من أطوار الحياة : فقد تغيرت نظرتى إلى بعض الأشياء ، وأخذت طريقاً لإشباع نفسى بتقليب صفحات الماضى الذى بدأت أحس بأننا قطعة منه .

٧٠ — وإذا بى أؤمن بأن تاريخ مصر والشام وحدة لا تتجزأ ، وأن أية محاولة للفصل بينهما تؤدى بنا إلى نتائج معكوسة أى تقرير مبادىء سلبية بقصد أصحابها توزيع القوى والزام وتجزيء الأمم وإنقاص الدور الذى ألقته علينا الأقدار وحمله لنا التاريخ كقوة مقاتلة منشئة منتصرة .

٧١ — وها نحن نعيش فى عصر طابعه السرعة والإقدام ، والبناء والخلق والتجديد ومع هذا لا نزال نسير على خطوات وئيدة والزمن يعدو أمامنا : ذلك لأن عوامل التفكك والانحلال والسلبية لا تزال تعمل فى صفوفنا وتعوقنا عن الأهداف الكبرى

٧٢ — هل كان الذين انتصروا فى هذه الحروب وقادوا الحملات وتغلبوا على الحوادث لهم نظرة خاصة ومنطق خاص حتى تغلبوا على قوات تفوقهم ؛ وأحرزوا النصر ، وأننا لا نستطيع أن تكون لنا مثل نظرتهم ومنطقهم ومثلهم العليا ؟

إن الذين خاضوا هذه المعارك أظهروا نهاية ما يمكن من الإقدام حينما وجدوا القيادة الصالحة ، فهل يجدها معاصرونا الآن؟ إن استمرار الكفاح والجهاد لمدة تقرب من قرنين لهو أظهر دليل على أن صفات الاستمرار والمداومة ثابتة فى الصفوف بين الأمم الإسلامية ، ولا تحتاج إلا لمن يظهرها ويحسن قيادتها وتوجيهها .

٧٣ — ونحن لا نعيد الحروب الصليبية بمآسيها ومتاعبها

طرائف من العصر المملوكي :

أدب الحـــــرب

للأستاذ محمود رزق سليم

ما أكثر امتلاء العصر المملوكي بالحروب الخارجية ، وما كان أسرع ملوكه وأمراءه إلى تلبية نداثها كلما دعت ، والاستجابة لهـا كلما أهابت . ومن يتصفح تاريخ هذه الحقبة الفريدة من تاريخ مصر يجد أن جيشها كان يكافح عدوين لدودين طاغيين معتدين ، همـا التتار والفرنجة . ولم يكن في كفاحه متجنياً ولا معتدياً ، وإنما كان يذود عن ممتلكات مصر وأرض المسلمين ومقدساتهم . فلم تـكن حروبه حروب أطماع وأهواء ، ولـكن حروب دفاع ورد اعتداء . فهي حروب مشروعة لهـا سند من الدين والعقل والقانون .

أما التتار فكانوا في بداءة أمرهم وفي جلته ، وثنيين جهلاء ، وسفاكين للدماء . وما دفعهم من أقاصي بلادهم في آسيا ، إلا حب الفتح والاستعمار . وما أشبههم في العصر الحديث — لا بألمانيا وحدها — ولـكن بكل دولة من تلك الدول الـكبرى الفاغرة فاها للشرق وخيرات الشرق تبغي استلابها والتهامها ، استلاب اللصوص والتهام القطاع . وكان يظن أنهم القوة لا تهزم ، فـكفـكف المماليك غربهم ، وفلوا سيوفهم ، وردوهم داحرين على أعقابهم في جملة مواقع حاسمة قاصمة . وزالت بذلك خرافة قوتهم .

أما الفرنجة فقد حركتهم إذ ذاك أطماع استعمارية كذلك ، وشنوا الحروب على سواحل البحر الأبيض الشرقية تحت ستار من المسيحية — والمسيحية الطاهرة منهم براء — وكانت هذه السواحل من شمال البلاد الحلبية إلى الشامية إلى الفلسطينية في جملة ممتلكات مصر ، يعيش فيها جميعاً شعب واحد متحد المشارب مجتمع الأهواء متجانس المقومات ، له دينه ولغته وجنسه وتقاليده وله مشاعره المتشابهة ومصالحه المشتركة . فذاد عنها سلاطين مصر الأباة ، عارفين للدين حرمته ، وللوطن كرامته ، ودافعوا عنها دفاع المستميت ، لا وني ولا وجل .

وإلى جانب ذلك كلـه كانت لهم حروب أخرى بعضها لتأديب أمير شق عصا الطاعة ، أورد عدوان جار من جيرانهم ، أو نحو ذلك . وأبدى كثير منهم سـلاطين وأمراء وجنوداً ضروباً من الشجاعة خارقة .

وكانت هذه الحروب — في كثير من ظروفها — منشطة لشياطين الشعراء والأدباء ، فتابعوا سيرها وتحولاتها ، مستمنحين منها الوحي ، مستشمرين الإلهام . فمدحوا الملوك والأمراء الذين أبدوا من ضروب الشجاعة والمهارة ما استحق التخليد ، وكان لأعمالهم أثر مجيد في الانتصار . وحمسوا وفاخروا بما نال جيش مصر من الظفر ، ووصفوا الوقائع وملابسها من حوادث وما صاحبها من آلات القتـال ، كالرماح والسيوف والخيل واللامات ، وسجلوا بذلك كله كثيراً من حوادث أجيالهم ، وشاركوا المصر إلى حدما في آلامه وأحلامه .

ولم يقصر الـكتاب الناثرون عن إخوانهم الشعراء في هذا المضمار . فقد كان بمصر حينذاك ديوان من دواوين الدولة خاص

وإن كانت تتكرر على مقربة منا في فلسطين ولـكننا نقول : إننا في حاجة وقت السـلم إلى صفات لا تقل عن الصفات التي تحتاجها الأمة وقت الحرب بل قد تزيد .

٧٤ — إننا في عصر يتطلب انتزاع النصر في السـلم كما انتزعه أسلافنا في الحرب ؛ وتحضيرهذا يتطلب جمع القوى المشتتة وتنظيمها وتعبئتها ، وهذا التنظيم نوع من الـكفاح الدائم المستمر

٧٥ — إنه يتطلب نوعاً من الهدوء والثبات والتركيز ، والاقدام وهي من قبيل الصفات التي تمكن بها أسلافنا من انتزاع النصر في المعارك التي ذكرتها أو أشرت إليها في الـكلام عن حصن الأكراد ولا أشك في أن هذه الصفات كامنة فينا وأؤمن أنها ستخرج في القريب لـكي نحقق في السلم ما يرى الـكثيرون أنه بعيد التحقيق وليس في طاقة شعوب الشرق أن تقوم به ، ولـكن وثبتها نحو تحقيق مثلها العليا ستجعل هذا الرأي حقيقة ماثلة للعالم أجمع .

أحمد رمزي

بالكتابة وهو « ديوان الإنشاء » تصدر عنه الرسائل الرسمية العامة . ويلى أمر الكتابة فيه حذاق المنشئين وبارعوهم . وكان فى جملة الرسائل التى يعنون بكتابتها « البشارات » وهى أنواع ، ومنها : البشارة بانتصارات الجيش على أعدائه ، فيوصف فيها تحرك الجيش واستعداده للاشتباك فى القتال وما يأتيه السلطان أو أعوانه من ضروب المغامرة والشجاعة ، وما يصبونه على عدوهم من أهوال ، وما يصيبونه بعد هذا من نصر وظفر ، إلى غير ذلك . وكانت هذه الرسائل تكتب بعبارة أدبية طريفة مطولة يجرى أسلوبها على الطريقة الفاضلية أو النباتية ، يبدع فيها الكتاب ما شاء لهم الإبداع والفن الكتابى الذى يسلكون سبله . وتنشر هذه الرسائل على الناس أو تتلى فى الجامع . فهى إلى حد ما شبيهة بما يكتبه مراسلو الصحف فى أيامنا ، ممن يصحب الجيوش فى تحركاتها . وذلك لما يسرى فيها من روح أدبية ونزعة عاطفية . ومن هنا تفارق البلاغات الرسمية الحربية التى يذيعها أولو الشأن اليوم عن حركات الجيش فى لطف وإيجاز. ولو استطعنا جمع هذه البشارات كلها لكان لنا منها سجل أدبى رائع عن حروب المماليك وانتصاراتهم .

وقد روى أن الظاهر بيبرس سلطان مصر غزا فى الشام ، واستطاع بجيشه المصرى أن يوقع بالتتار ويذل الفرنجة ويستفتح المدن المنيعة ويدك الحصون المستعصية . وقد شارك جنوده وعماله بيده فى أداء أعمالهم ، وأظهر خوارق من المغامرات . ولما فتح قيسارية — وكانت من قلاع الفرنجة ومدنهم الحصينة — كشف بلادها وقوّم خراجها ، ووزع ذلك كله على أمرائه الذين شاركوه فى جهاده . وكتب بذلك « مكتوب جامع بالتمليك » وهو ضرب آخر من الرسائل الرسمية . وقد جاء فى مطالعه بعد الحمد والصلاة ما يلى فى وصف الانتصار :

« إن خير النعمة نعمة وردت بعد الياس ، وأقبلت على فترة من تخاذل الملوك وتهاون الناس . فأكرم بها نعمة وصلت للأمة المحمدية أسباباً ، وفتحت للفتوحات الإسلامية أبواباً . وهزمت من التتار والفرنج المدون ، وربطت من الملح الأجاج والعذب الفرات بالبرين والبحرين . وجعلت عساكر الإسلام تذل الفرنج بغزوهم فى عقر الدار ، وتجوس من حصونهم المانعة خلال الديار والأمصار . وتقود من فضل عن شبع السيف الساغب إلى حلقات الإسار . ففرقة منهم تقتلع للفرنج قلاعاً وتهدم حصوناً ، وفرقة تبنى ما هدم التتار بالمشرق وتعليه تحصيناً . وفرقة تتسلم بالحجاز قلاعاً شاهقة ، وتتسنم هضاباً سامقة ، فهى بحمد الله البانية الهادمة ، والقاسمة الراحمة . كل ذلك بمن أقامه الله وجرده سيفاً ففرى ، وحملت رياح النصرة ركابه تسخيراً فسار إلى مواطن الظفر وسرى . وكونته السعادة ملكاً إذا رأته فى دستها قالت تعظيما له ما هذا بشرا ... » إلى آخر هذا المكتوب .

وقد نظم أديب عصره وشاعره محيى الدين بن عبد الظاهر ، هذه الأبيات يصف فيها جنود مصر ومغامرات بيبرس فى حرب التتار ، فقال :

تجمع جيش الشرك من كل فرقة ... وظنوا بأنا لا نطيق لهم غلبا
وجاءوا إلى شط الفرات وما دروا ... بأن جياد الخيل تقطعه وثبا
وجاءت جنود الله فى المدد التى ... تميس لها الأبطال يوم الوغى عجبا
فعمنا بسد من حديد سباحة ... إليهم فما اسطاع العدو له نقبا

واعتقادنا أن هذه الأبيات بقايا قصيدة طويلة بارعة للقاضى محيى الدين . وهى تحدثنا فى طلاقة ووضوح بما كان ثم من شجاعة بيبرس وجنوده . فإنه خاض نهر الفرات بنفسه للقاء التتار على شاطئه الآخر ، فاندفع جنوده فى إثره خائضين ، فدحروا العدو وشتتوا شمله . وفى البيت الثالث يصف الشاعر الجنود بأنها جنود الله ، وفى ذلك دلالة على عقيدتهم فى أنهم إنما يخرجون للجهاد فى سبيل الله وحماية دينه . وقد أبدع الشاعر فى البيت الرابع إذ يقول « فعمنا بسد من حديد » كناية عما يلبسون من درع وعما يحملون من سلاح ، وعما لهم من كثرة ، وعما فيهم من جرأة . وهذه أهم أدوات النصر ، وقد انتصروا فعلا ، فإن العدو لم يستطع لهذا السد العظيم نقباً ، وفى العبارة الأخيرة شيء من الاقتباس وفيه إشارة بتشبيه سدهم هذا بسد ذى القرنين .

وقد نظم الشاعر بدر الدين يوسف بن المهمندار فى نفس الواقعة أبياتاً بديعة دقيقة الوصف رائعة التصوير تنضح بالمجد وتوحى بالفخار وتسجل عظمة أولئك الأسلاف الصيد ، والغضافر الصناديد : ومن هذه الأبيات قوله :

لو عاينت عيناك يوم نزالنا … والخيل تطفح في العجاج الأكدر
وقد اطلخم الأمر واحتدم الوغى … ووهى الجبان وساء ظن المجترى
لرأيت سداً من حديد ما يرى … فوق الفرات وفوقه نار ترى

ومنها :

ورأيت سيل الخيل قد بلغ الزبى … ومن الفوارس أبحراً في أبحر
لما سبقنا أسهما طاشت لنا … منهم إلينا بالخيول الضمر
لم يفتحوا للرى منهم أعيناً … حتى كحلن بكل لدن أسمر
فتسابقوا هرباً ولكن ردهم … دون الهزيمة ريح كل غضنفر

وانظر حسن التعليل ، أو توكيد المدح بما يشبه الذم ، في قوله :

ما كان أجرى خيلنا في إثرهم … لو أنها برءوسهم لم تعثر

ومنها :

وجرت دماؤهم على وجه الثرى … حتى جرت منها مجارى الأنهر
والظاهر السلطان في آثارهم … يذرى الرءوس بكل عضب أبتر
ذهب الغبار مع النجيع بصقله … فكأنه في غمده لم يشهر

ومن سلاطين مصر الأشرف خليل بن قلاوون . وقد حارب كذلك في بلاد الشام وفتح مدينة « عكا » الحصينة بعد أن رماها بالمنجنيق وهدم سورها وقلعتها . وكانت بهذه الفريحة فدحه القاضي شهاب الدين محمود الحلبي بقصيدة بائية في نحو خمسة وستين بيتاً . قال في مطلعها :

الحمد لله ذلت دولة الصلب … وعز بالترك دين المصطفى العربي
هذا الذى كانت الآمال لو طلبت … رؤياه في النوم لا ستحيت من الطلب
ما بعد عكا وقد هدت قواعدها … في البحر للشرك عند البر من أرب
عقيلة ذهبت أيدي الخطوب بها … دهراً وشدت عليها كف مغتصب
لم يبق من بعدها للكفر مذ خربت … في البحر والبر ما ينجي سوى الهرب
كانت تخيلنا آمالنا فنرى … أن التفكر فيها غاية العجب
أما الحروب فكم قد أنشأت فتنا … شاب الوليد بها هولا ولم تشب
سوران بر وبحر حول ساحتها … داراً وأدناها أنأى من العطب
مصفح بصفاح حولها أكم … من الرماح وأبراج من اليلب
مثل الغمائم تهدى من صواعقها … بالنبل أضعاف ما تهدى من السحب
كأنما كل برج حوله فلك … من المجانيق ترمى الأرض بالشهب
ففاجأتها جنود الله يقدمها … غضبان لله لا للملك والنشب
كم رامها ورماها قبله ملك … جم الجيوش فلم يظفر ولم يجب
لم ترض همته إلا الذى قعدت … للعجز عنه ملوك العجم والعرب

ثم أخذ الشاعر في مدح السلطان ثم وصف جيشه ووصف الحرب منوها بالأغراض المتوخاة منها ، إلى غير ذلك من الأغراض الشعرية .

وفي عام ٦٩١ هـ فتح السلطان الأشرف خليل قلعة الروم ، فهنأه شاعره هذا وهو القاضي محمود الحلبي بقصيدة رائية على نمط القصيدة السالفة في الروعة ودقة الوصف وجمال التصوير ووضوح المعنى . وقد بدأها بوصف راية السلطان وهي صفراء اللون ، فكان له من اصفرارها مدد جميل لوصفه قال :

لك الراية الصفراء يقدمها النصر … فمن كيقباذ إن رآها وكيخسرو
إذا خفقت في الأرض تهدى بنورها … هوى الشرك واستعلى الهدى وانجلى الثغر
وإن نشرت مثل الأصائل في وغى … جلا النقع من لألاء طلعتها البدر
وإن يممت زرق العدى سار تحتها … كتائب خضر تحتها البيض والسمر
كأن مثار النقع ليل وخفقها … بروق وأنت البدر والفلك والبحر
لها كل يوم أين سار لواؤها … هدية تقليد يقدمها الدهر
وفتح بدا في إثر فتح كأنما … سماء بدت تترى كواكبها الزهر
فكم وطئت طوعاً وكرهاً معاقلاً … مضى الدهر عنها وهي عانسة بكر

وكان الأديب ابن حجة الحموي من خلصان سلطان مصر الملك المؤيد شيخ المحمودي اتصل به قبل سلطنته أيام أن كان أميراً في بلاد الشام ، وقدم إلى مصر بعد سلطنته وأقام في خدمته ردحاً . وكان المؤيد قبل سلطنته قد وقعت فتن بينه وبين سلطان مصر حينذاك الناصر فرج بن برقوق . فانهزم فرج أمامه في ضيعة من ضياع الشام اسمها « اللجون » فكان ذلك مثاراً لشاعرية ابن حجة إذ مدح المؤيد وذكر المعركة ووصف ما دار فيها موفقاً في كثير من أبياته . فقال يخاطب المؤيد :

يا حامي الحرمين والأقصى ومن … لولاه لم يسمر بمكة سامر
والله إن الله نحوك ناظر … هذا وما في العالمين مناظر

فرج على «اللاجون» نظم عسكرا ... وأطاعه في النظم بحر وافر
فأبنت منه زحافه في وقفة ... يا من بأحوال الوقائع شاعر
وجميع هاتيك البغاة بأسرهم ... دارت عليهم من سطاك دوائر
وعلى ظهور الخيل ماتوا خيفة ... فكأن هاتيك السروج مقابر

ومنها :

وإذا مددت يراع رمحك ماله ... إلا قلوب الدارعين محابر
ونمال خيلك كالعيون وما لها ... إلا جماجم من قتلت محاجر

ويعتبر القتال بين السلطان فرج وأميره شيخ حربا أهلية إذ أن كليهما من رجال الطبقة الحاكمة المصرية حينذاك وما كان أكثر الحروب الأهلية ووقائعها في هذا العصر !

ويطول بنا المقال لو استرسلنا في الحديث . غير أننا نختتمه بأن نذكر أن الزجالين كانوا في عداد الأدباء عناية بذكر الوقائع ووصف الحروب ، وأن الشعراء طرقوا في باب الوصف ، السيوف والرماح ونحوها من آلات القتال ، ومنهم من أخرج غزله مخرجا حماسيا ، فاستعار لأدواته وملابساته ما للحرب من أدوات وملابسات . — ومن لطيف ما يروى أن الأمير « الطنبغا الجوباني » الذي كان نائبا عن سلطان مصر في كفالة الشام ، زمنا دعا فضلاء الأدباء لكي ينظموا أبياتا تكتب على أسنة الرماح ، وعددها أربعة . فتبارى في ذلك كثيرون . ومنهم فتح الدين ابن الشهيد فقال على لسان الرمح :

إذا الغبار علا في الجو عثيره ... فأظلم الجو ما للشمس أنوار
هـذا سناني نجم يستضاء به ... كأنني علم في رأسه نار
والسيف إن نام ملء الجفن في علق ... فإنني بارز للحرب خطار
إن الرماح لأغصان وليس لها ... سوى النجوم على الميدان أزهار

محمود رزق سليم
مدرس الأدب بكلية اللغة العربية

زعيمان

للأستاذ محمود الخفيف

هما أحمد عرابي وإبراهام لنكولن ، يجمع بينهما في مجال الزعامة أن كليهما كانت الحرية متصلة بطبعه ، وأن كليهما اضطلع بقضية كبرى في قومه خلد بها اسمه ، ويجمع بينهما في هذا المقال وفي مقال في العدد السالف من « الرسالة » بنفس العنوان ما تفضل به من حديث عنهما ، أو بالأحرى عن كتابيّ فيهما ، الناقد الكبير الأستاذ العقاد .

ولقد أثار ما كتب الأستاذ الجليل أعظم اهتمامي ، فإني لأنزله من نفسي منزلة الأستاذ ، تلك المنزلة التي ينزله إياها بالحق جمهور القارئين في العالم العربي ، وأحرص على الإفادة من كل ما يكتب في الأدب ، فكيف إذا كان ما يكتب متصلا بكتابين أخرجتهما ؟

على أن اهتمامي بما قال عن الزعيمين كان أعظم مما ذكره متفضلا عن الكتابين ، وللأستاذ الكبير عظيم شكري على ما تفضل به علي من ثناء أرجو أن أظل له عاملا .

وإن الحديث عن هذين الرجلين لفرصة يجب ألا تفوت ، فقد أردت بكتابي عن أولهما الدفاع عنه لاعتقادي أنه ظلم ، وأن ظلمه مما يشين هذا الجيل الذي أصاب حظاً غير قليل من الثقافة ؛ وأردت بكتابي عن ثانيهما أن أجمل منه ، وهو الشخصية العالمية المحبوبة ، قدوة لشبابنا ، ومثلا لسادتنا وكبرائنا ... وإن الشباب والكهول في كل أمة متمدنة ليقرأون عشرات الكتب في سيرته ويجدون فيه للعصامية المثل الأعلى !

أما عن عرابي ، فحسبي مما بلغت بدفاعي عنه أن أقول في غير زهو أو فخر : أنه ما من قارئ لكتابي حدثني عنه إلا آمن لي ، ورأى في عرابي ما كان من قبل ينكره أو يأخذه في كثير من الشك والتردد ، وهو أنه زعيم قوي مخلص لعقيدته فذ في وطنيته ؛ وحسب عرابي أن يشهد له بالإخلاص والوطنية من زعماء الكتاب في جيلنا هذا أستاذنا الجليل صاحب « الرسالة » ، الذي شرفني بجمل عملي في الدفاع عن عرابي عمل إميل زولا في الدفاع عن دريفوس ، ثم أستاذنا الكبير العقاد الذي نفى عن عرابي في كلمته الأخيرة ما اتهمه به المفترون ظلماً والجاهلون ، والذي تفضل فقال عن كتابي : « إنه يعد في بابه قليل النظير » .

ومما أطيب به نفساً أن أجد رأي الناس عن عرابي قد أخذ يتغير ، فالصحف والمجلات تتحدث عنه اليوم على أنه زعيمنا الأول ، ويشيع فيما تكتب عنه كثير من التحمس له ، والمثقفون في ندواتهم يذكرونه بالخير ويأسفون على ما لحقه فيما سلف من ظلم ؛ فإذا كان مرد هذا أو بعضه إلى ذلك الدفاع الذي دافعت به عنه ، فأي اغتباط ذلك الذي تشعر به نفسي ، ومعاذ الله أن أقصد بهذا إلى شيء من الفخر ، وإنما هو شعور الراحة في نفس من يوقن أنه أنصف رجلا قضى نحبه مظلوماً وقد أحسن إلى بلاده ، وأنه أول من تصدى إلى هذا الإنصاف . وليغفر لي القارئ ما قد يجده في كلامي هذا مما يشبه الزهو .

***

وأما عن لنكولن ، فقد أخذ الكاتب الكبير على كتابي مآخذ قرأتها في كثير من الترحيب والاطمئنان ، فالعقاد من يصدر في النقد عن أستاذية توجب هذا الاطمئنان ، وتوجب معه الاهتمام والحرص على الانتفاع من جانب كل مؤلف وإن علا كعبه في التأليف ؛ وأنا بالضرورة أولى بالاهتمام والحرص على الانتفاع ، ومقامي في التأليف مقام المبتدئ ؛ غير أني أحس في بعض ما ذكر الناقد الفاضل ما لا ترتاح إليه نفسي ، وأؤكد للأستاذ الكبير أني أذكر ذلك عن إخلاص وصدق رغبة في الفهم والتعلم ، وهي على أية حال فرصة طيبة لأسمع رأيي لعله يتفضل بإرشادي إلى موضع الخطأ فيما أقول ، وفرصة طيبة للحديث عن لنكولن لعل في الحديث عنه ما فيه للقارئ بعض الفائدة ...

أخذ الأستاذ على كتابي « أنه ليس فيه تعريف كاف بأسلاف لنكولن من جانب أبيه وأمه » ؛ وهذا الذي يأخذه على الأستاذ حق لا مرية فيه ، ولكن كيف السبيل إلى معرفة هؤلاء الأسلاف ؟ هذا هو موضع التساؤل بيني وبين الأستاذ الجليل .

لقد عرف لنكولن أول ما عرف نجاراً ابن نجار أمي ، وولد في كوخ وسط الأحراج والأدغال البرية بعيداً عن دنيا الحضارة ، ولم يحدثه أبوه عن أسلافه إلا قليلا ، ومرد ذلك إلى بيئته وجهله ، وكان حديث أمه أقل لما أحاط بسيرتها من ملابسات ذكرتها بوضعها في الكتاب ، نقلا عن لنكولن ، إذ أفضى بها ذات مرة إلى صديقه هرندن ولم يعد إليها أبداً ، حتى لقد كانت إذاعتها على لسان صديقه مثار جدل وضجة في الولايات المتحدة كلها .

ولم يتحدث لنكولن نفسه عن أسلافه إلا قليـلا ، لأنه لم يكن يعرف عنهم إلا القليل ؛ ولقد كان يقتضب الحديث عنهم اقتضاباً كأنه يكرهه ، بينما يفيض إذا تحدث عن نشأته في بيئته الأولى .

لهذا حار كتاب حياته في معرفة أسلافه ، وتحت يدي أكثر من عشر تراجم له ومن بينها كتاب إميل لدوج الذي عرف باستيعابه كل شيء ، وأهم منه كتاب صديقه وزميله في المحاماة هرندن الذي كان أعلم الناس به ، وهو الذي اعتمد عليه لدوج وغيره ، وهؤلاء جميعاً لم يذكروا عن أسلافه إلا القليل وما لهم في ذلك حيلة ...

افتتح هرندن الفصل الأول من كتابه بقوله : « لم يكن لدى مستر لنكولن عادة ما يقوله إذا تحدث عن نفسه وعن آبائه وتاريخ أسرته قبـل مجيئهم إلى إنديانا أكثر من تلك الحقيقة ، وهي أنه ولد في الثاني عشر من فبراير سنة ١٨٠٩ في ناحية هاردن بكنطكي؛ وكان إذا تحدث عن هذا الموضوع ، وقليلا ما تحدث ، يفعل ذلك في كثير من التردد والتحفظ » ؛ وأورد هرندن بعد ذلك بقليل قول لنكولن لأحد أصدقائه فيما بعد ، وكان يسعى لكتابة تاريخ حياته : « لما ذا تمني نفسك ياصاحبي سكربس ؟ إنه لمن أكبر الحمق أن تحاول أن تجـد شيئاً ذا بال في شخصي وفي حياتي الأولى . إنك لتستطيع أن تحصرها في جملة ، وتجد هذه الجملة في مرثية جراي وهي « سيرة الفقراء القصيرة البسيطة »

وأنا أرجو من أستاذنا العقاد ، وهو أطول مني باعاً وأكثر اطلاعاً ، أن يرشدني إلى ما أقف منه على أسلاف لنكولن ؛ وإني لشديد الحرص على إرشاده ، ذلك أن الأستاذ الجليل قد عقب على ذلك الذي أخذه عليَّ مما يتصل بأولئك الأسلاف بقوله : « ولا تتم العبرة من تاريخ لنكولن إذا لم تكن نشأته وارتقاؤه إلى رئاسة الجمهورية ، وحقائق مصرعه موضع اهتمام خاص يفوق كل اهتمام بغيرها من الموضوعات » ؛ ولقد تشعر هـذه العبارة من لم يقرأ كتابي بأني لم أهتم بنشأته وارتقائه إلى رياسة الجمهورية ، والواقع أن نشأته وارتقاءه إلى رياسة الجمهورية استغرقت من هذا الـكتاب الذي يقع في خمسين وثلثمائة صفحة كبيرة نحو ثلثيه ، فقد تحدثت حديثاً طويلا عن حياته وهو صبي في الغابة ، ثم وصفت أخلاقه شاباً يعمل في حانوت ، وقد خرج من الغابة ، ويعمل في البريد ، وفي تخطيط الأرض ، ثم انتقلت إلى اشتغاله بالمحاماة ، وإلى تدخله في السياسة ، واختياره عضواً في الـكونجرس ، وما زلت أتتبع في تفصيل ارتقاءه في المحاماة والسياسة ، واهتمامه بمسألة الرق ، وردوده على خصومه ، وما كان من الأحوال السياسية المحيطة به ليفهم سيرته حق الفهم من لا يلم بتاريخ الولايات المتحدة ، حتى بلغت ترشيحه للرياسة ، فبينت في إسهاب كيف رشح ، ومن نافسه ، وما قيمة منافسيه ، ثم شرحت المعركة الانتخابية في استيعاب لا أذكر له نظيراً في كتاب واحد مما قرأت ، وأخيراً بلغت بسيرته ارتقاءه للرياسة ، وأعتقد أني وضحت ذلك جميعاً مع جهلي بتاريخ أسلافه ، ذلك الجهل الذي لم تكن لي ولا لغيري فيه حيلة ...

وثمة مسألة أخرى أخاصم ناقدي الـكبير فيها خصاماً شديداً ، وهي أنه ذكر عن كتابي أنه « ليس فيه إلمام كاف بسلسلة المصادفات المتوالية التي ساقته إلى رياسة الجمهورية » ؛ وليسمح لي الأستاذ الـكبير أن أقول له — وهو العليم الذي لا يُعلَّم — أن المصادفات إذا كان لها شأن في حياة بعض العظماء ، فإن لنكولن أحد من تخلو حياتهم من المصادفات خلواً تاماً . ولعله أوضح مثل في هذا الصدد ، وإلا فأي عصامية أقوى من عصاميته ؟ وما عمل المصادفات في حياة نجار ابن نجار شق طريقه في الحياة كما كان يشق طريقه بين أحراج الغابة ، فقيراً لا جاه له ولا نسب يعتمد عليه ، ومازال يتكئ على نفسه حتى أصبح رئيس الولايات المتحدة ؟ كلا ، ليس للمصادفات دخل في حياة لنكولن ، بل لقد كانت تعترض له أشد الصعاب ، وقد كان يخفق مرات فيما يسعى إليه ، ولقد نافسه في حزبه خصوم شـداد ، وكاد يتغلب عليه سيوارد أقوى خصـومه ، فيظفر بأغلبية المؤتمرين من الحزب الجمهوري الذين أرادوا ترشيح رجل من الحزب للرياسة ؛ ولقد كان هو ينتظر الفشل ويتحدث به إلى هرندن ؛ وإذا كانت المسألة مسألة اختيار يقوم على الموازنة والخصومة ، فأي دخل في ذلك للمصادفة التي تقوم على الحظ ؟ ذلك — كما أسلفت — ما أخاصم فيه ناقدي الفاضل ، وكنت أحب أن يضرب مثلا لأثر المصادفة في حياة لنكولن . والحق أني حرت في قوله « وقد كان من الجائز جداً ألا يصل إلى رئاسة الجمهورية ، لأنه لم ينجح قط في انتخاب أو ترشيح إلا كان للمصادفة في اللحظة الأخيرة أكبر الأثر في

هذا النجاح » . ولـكم يسرنى ويسر قراء الأستاذ الـكبير أن يضرب لنا بعض الأمثلة لما يذكر .

وذكر الأستاذ الفاضل عن الـكتاب قوله : « وليس فيه تعليق على مقتله ، ولا عن المتآمرين عليه » ؛ والحق أنها جريمة غير محددة الدوافع أشبه بجريمة أبى لؤلؤة فى ضيق نطاقها المعلوم . وأما بطل الجريمة فلم يذكر شيئاً ، ولم يصل القصاص فيها إلا إلى ثلاثة أشـخاص من شركائه ؛ وخير ما يقال عن ذلك القاتل ما ذكره الأستاذ العقاد نفسه حين يقول : « وجملة ما يقال عنه أنه ممثل فاشل أراد أن يعوض فشـله فى أدواره المسرحية بهذا الدور من أدوار المغامرات المعهودة فى تاريخ البلاد الأمريكية ، ولولا عوارض شخصية فى طبيعة هذا المفتون لما وقع الحادث على الإطلاق » ... وأظن أنه لا محل بعد هذا لأن يؤخذ على الـكتاب أن « ليس فيه تعليق على مقتله ولا عن المتآمرين عليه » فضلا عما أوجبه الأستاذ من اهتمام خاص بحقائق مصرعه فيما أوجب من أمور ذكر أن العبرة من تاريخه لا تتم إلا بها .

بقيت مسألة واحدة ، وهى أن الأستاذ الجليل يرى أنى – كما يبدو لأول وهلة من كتابى – موفق فى تحقيق معلوماتى ووزن أبطالى ، إلا أنى حين أحتاج إلى الميزان المشترك بين أبطال متعددين أضطرب فى الميزان بعض الاضطراب ، وقد يكون هذا صحيحاً ، ولـكنى لا أستطيع الجزم بصحته كما لا أستطيع الجزم بنفيه ؛ وذلك لأنى لست أذكر أنى عنيت بالميزان المشترك ، فقد كنت أصف كل شخص وحده ، ولم أصدر حكما على لنكولن بعد الموازنة بينه وبين غيره ، ولهذا لم تتضح فى ذهنى عبارة الأستاذ الناقد : « ومن أمثلة ذلك فى تاريخ لنكولن أن كلامه عن بطله صحيح ، وأن كلامه عن دوجلاس مزاحمه صحيح ، ولـكنه إذا عرض الرجلين على الميزان المشترك لم يبلغ من الدقة ما يبلغه من وزن كل منهما على انفراد » .

وبعد ، فإنى أعود فأقدم للأستاذ الجليل عظيم شكرى على فضله ، وأعبر له عن بالغ سرورى واهتمامى بنقده ، وشديد حرصى على الإفادة من إرشاده ونصحه ، فذلك دأبى معه فى كل ما أقرأ له منذ نشأتى ...

الخفيف

مزامير :

أين راحـــت ؟

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

— ١ —

« إلى راهبة الضحى السمراء ، فى أغـلالها الجديدة ... »

لم أكد أسبح فى وادى شذاها
وأذل المطـر من عاتى ذراها
وأصيد الســحر ، لو كانت رباها
ها جمات بين ألفـاف الأبد
كل ظل حول جنبيها رصـــد ..

لم أكد .. والـكأس فى كفى صاد
وعلى أعصابهـا الخمر تنادى
حانة فيها ... وأخرى فى فؤادى
أقبلى ... والـكأس كادت تتقد
ومددت الـكف .. لـكن لم أكد

لم أكد .. والنهر نشوان الضفاف
وخطا الزورق أرست بالمطـاف
والهوى ما بين عب وارتشاف
حائر الســكرة عات مستبد
وهى بركان توارى فى جسـد

لم أكد .. حتى تلفت إليهـــا
فإذا النار صـــلاة فى يديها
وإذا وعـد هفا من حاجبيها
فأرقت الـكأس إعـــاناً بفد
وارتقبت الوعد ... لـكن لم تعد !!

محمود حسن اسماعيل

الأدب والفن في أسبوع

لماذا خاضت مصر معركة فلسطين ؟

كان هذا عنوان الحديث الذي ألقاه بالإذاعة معالي الأستاذ ابراهيم دسوقي أباظة باشا وزير المواصلات ، ولم يكن هذا الحديث كالذي عهدناه من الوزراء والسياسيين الذين تحكمهم الرسمية والدبلوماسية ، ولم يكن حديث رجل فارق الشباب ، إنما كان حديث « شاب » مصري عربي ، استشمر مصريته وعروبته ، وواتاه البيان العربي ، فراح يتدفق في حماس وقوة ، ولم يقف في الحق عند حد ، بل كان صريحاً جريئاً لاذعاً . حمل على الولايات المتحدة حملة شعواء ، إذ قال : إننا دخلنا الحرب مضطرين بسبب المعاملة الجائرة التي عاملتنا بها هيئة الأمم والولايات المتحدة على الخصوص ، وهي التي كانت في أثناء الحرب تنادي بالمبادئ السامية ، فأصبحت تزود عن المطامع الصهيونية . وليس هناك ظل من الشك في أنها ضغطت على الدول لتحصل على أغلبية تقول بالتقسيم ، وقد اعترف ممثلو تلك الدول بذلك وأعلنوه . وندد معاليه بموقف الرئيس ترومان قائلا : إن موقفه يدعو للعجب والدهشة ، فهو في سبيل عدد ضئيل من الصهيونيين لا يبلغ نصف مليون من المشردين والأفاقين والمرتزقين من حثالة الشعوب لفظتهم بلادهم فانهالوا على فلسطين من كل فج لا على أساس من الجنسية أو اللغة أو أي مقوم من مقومات الشعوب ، بل على أساس الدين وحده — في سبيل هذه الحثالة يمزق الرئيس ترومان ميثاق هيئة الأمم المتحدة ، ويعبث بالمبادئ التي أعلنها العالم بأسره ممثلا في تلك الهيئة من احترام الحريات وحقوق الشعوب والمساواة بين الأمم؛ ومن أجل هذه الحثالة الشريرة المحتالة يقف الرئيس ترومان إلى جانب وزمان زعيم الصهيونية ، فينزله في البيت الأبيض ، ويحمله على الظهور بجانبه في صورة فوتغرافية وهو يقبل منه التوراة هدية ، وفي صورة أخرى وهو إلى جانبه يحتضن شارة العصابة الصهيونية متلفعاً بها فخوراً رغم أنف العدالة الدولية . من أجل هذه الحثالة يعرض بلاده لعداوة ثلثمائة مليون من المسلمين في أنحاء الأرض — الرئيس ترومان المحب الواله والصب المدنف والمغرم المدله المشغوف بالصهيونية !

ثم قال معاليه : دخلت مصر الحرب مكرهة ، لأنها لم تجد عدلا لدى هيئة الأمم ، فاعتقدت أن العدل لن يكون إلا إذا دعمه السلاح . دخلت مصر الحرب دفاعاً عن فلسطين وعن نفسها ، فإن قيام دولة صهيونية تتاخمها فيه القضاء عليها من كل وجهة ، وقد اكتشفنا بعد التوغل في فلسطين أننا كنا نعيش على فوهة بركان ، لأن استعداد الصهيونيين بمصر ، وضبط العدد الهائل من الجهازات اللاسلكية والمدافع والبنادق والخرط الدقيقة وقوائم الاكتتابات ، مما يدعو للأسف والدهشة ويضعف حجتي في إقناع الكثيرين بوجوب التفرقة بين اليهود والصهيونيين . دخلت مصر الحرب — كما قال صديقنا فوزي بك في مجلس الأمن — لأن النار اشتعلت في دار جارنا ، فوجب علينا أن نطفئها . وكان من حقه أن يقول بأن النار اشتعلت في بيتنا ، لأننا والجار نسكن بيتاً واحداً . دخلناها تضامناً مع البلاد العربية الشقيقة المحبوبة ، التي عاهدناها على أن نكون يداً واحدة ، إذا هددنا خطر وقفنا ندافع عن حياتنا ونذب عن كياننا ، والعالم بأسره يتطلع إلينا ، فلا يحسبنا بعد الآن كمية مهملة ولا يساوي قلامة ! !

العالم يطل على مصر

يتحدث الأستاذ محمد رفعت بك في الإذاعة عن شئون عالمية تتصل بمصر ، وكان يسمي سلسلة أحاديثه « مصر تطل على العالم » فلما شغلت مصر بال العالم منذ دخلت جيوشها فلسطين للقضاء على الصهيونية ، أطلق على تلك الأحاديث « العالم يطل على مصر » وفي هذا الأسبوع تحدث عن المسألة الفلسطينية فتناول عدة نقط هامة ، منها أن الغرب لما هاله انتصار الشرق ، أراد أن يقاومه بالدبلوماسية ، فلجأ إلى مسألة الهدنة ، وهو ليس مخلصاً في ذلك وإنما يريد أن يحمي الصهيونية من بطش العرب ، في الوقت الذي يغض فيه عن أعمال الهولنديين بأندونسيا ، وهو ينتصر للعصابات الإرهابية في فلسطين في الوقت الذي يساعد فيه على العصابات الشيوعية في اليونان . وقال الأستاذ : إن ما كان مجلس الأمن قرره من وقف القتال بأندونسيا لم يحسم الموقف هناك بل صارت الحال أسوأ مما كانت لاستمرار حرب العصابات ، مما يدل على أن القتال لا ينتهي بوقف الحرب بين الجيوش

النظامية ما دامت أسبابها قائمة .

ومن النقط التي تناولهـا رفعت بك ، أن العرب حينما يستجيبون لطلب الهدنة إنما يستجيبون لنداء الإنسانية والشرف الدولي ؛ ولا يفيدهم وقف القتال ما دامت شروط الهدنة تنص على احتفاظهم بمراكزهم ، لأنهم قابضون على معظم المراكز الهامة في فلسطين وخاصة أنهم الآن يطوقون تل أبيب وكر الصهيونيين ومقر حكومتهم المزعومة . وقال إن اليهود إن أخلوا بشرط من شروط الهدنة فللعرب أن يستأنفوا القتال كما تنص على ذلك القوانين الدولية .

أعمال المجمع اللغوي :

أرسل مجمع فؤاد الأول للغة العربية إلى إدارة التسجيل الثقافي بوزارة المعارف ، بياناً شاملا بمثابة تعريف بالمجمع بناء على طلب الإدارة لتضمينه السجل الثقافي لسنة ١٩٤٨ الذي تعمل الآن في إعداده .

ومما تضمنه ذلك البيان موجز عن أعمال المجمع منذ إنشائه إلى الآن ، ونوجز هذا الموجز فيما يلي :

١ — اتخذ المجمع طائفة من القرارات العلمية واللغوية في قياسية الصيغ والتعريب والاشتقاق والتضمين ونحو ذلك ، لتوسيع آفاق العربية والعون على أداء الأغراض العلمية والفنية التي جاءت بها الحضارة الحديثة .

٢ — وجه المجمع أكبر همه إلى المصطلحات العلمية والفنية ولا سيما ما يدخل في التعليم الثانوي ، فاستخرج طوائف منها في علوم الأحياء والرياضة والطبيعة والموسيقى والطباعة والتصوير والكهرباء واللاسلكي وتاريخ القرون الوسطى والمنطيسية وغير ذلك ، وتبلغ هذه المصطلحات نحوا من عشرة آلاف مصطلح ، وقد دخل كثير منها في كتب التعليم وفي قوانين بعض الأمم العربية والثقافة العامة .

٣ — وضع المجمع نظاما ناجحة لتعريب الأعلام الأجنبية للممالك والبلدان ، حتى يزول الاضطراب في كتابتها أو النطق بها ، واستحدث رقوما وعلامات تلحق بالحروف العربية لتمكن النطق بالعلم الأجنبي على وجه الدقة ، وأصدر قائمة بأعلام بلاد السودان والحبشة والصومال وشمال إفريقية وغرب آسيا على وجهها الصحيح

٤ — عني المجمع بمشكلة الكتابة العربية قصداً إلى وضع نظام يكفل أن تؤدي الحروف إلى نطق الكلمة نطقاً سديداً ، وقد أرصد جائزة مقدارها ألف جنيه لمن يقدم له أحسن اقتراح في تيسير الكتابة العربية ، وقد تلقى المجمع في هذه المسابقة أكثر من مائتي مقترح ، وما تزال قيد النظر .

٥ — عني المجمع بمشكلة القواعد ومناهجها في التعليم رغبة في التيسير على الناشئين ، وقد درس مشروعاً لهـذا التيسير على أساس المشروع الذي وضعته لجنة ألفتها وزارة المعارف من قبل لهـذا الغرض ، وبعثت به إلى وزارة المعارف لوضع كتاب على أساسه ، وفي هـذا العام قرر المجمع أن تضع لجنة فنية هذا الكتاب .

٦ — قرر المجمع تأليف معجم لغوي لأوساط المثقفين يجري في ترتيبه وتنسيقه على أحدث الأساليب المصرية ، على أن يضمن إلى الألفاظ العربية أشهر الكلمات المستحدثة ، وتوضح أعلام الحيوان والنبات بالصور والرسم ، وقد أنجز معظم هذا المعجم .

٧ — قرر المجمع الشروع في وضع المعجم اللغوي الكبير الحاوي لألفاظ اللغة العربية واستعمالاتها مع التوسع في اختلاف المعاني وأصول الكلمات .

٨ — قرر المجمع أن يؤلف معجما لألفاظ القرآن يراد به أن يعين المثقفين على أن يتزودوا من ألفاظ القرآن الكريم وتعابيره .

٩ — يقوم المجمع بالإجابة عما توجهه إليه شتى المصالح الحكومية وطوائف العلماء والمؤلفين ، لترجمة ما يحتاجون إليه من المصطلحات وما يرغبون في تصحيحه من الألفاظ .

١٠ — قرر المجمع طبع معجم الدكتور فيشر أحد أعضائه ، وهو معجم لغوي تاريخي يعتمد على النصوص الأدبية القديمة ، وقد توقف العمل في هـذا المعجم لانقطاع الدكتور فيشر عن مصر بسبب الحرب .

١١ — قرر المجمع جمع ألفاظ الحضارة الحديثة والحياة العامة قصداً إلى العمل على التقريب بين الفصحى وبين لغة الحياة الاجتماعية .

١٢ — عني المجمع بتشجيع الإنتاج الأدبي الحديث ، وذلك بعقد مسابقات أرصد لها ثمانمائة جنيه سنويا في ميزانية المجمع .

١٣ — نشر المجمع أربعة أجزاء من مجلته ، وقريباً يصدر العدد الخامس من المجلة مشتملا على القسم الرسمي في الدورات التي لم تتضمنها الأعداد السابقة

توحيد المجامع في البلاد العربية :

ومما تضمنه البيان السابق أغراض المجمع ، وأهمها أن يحافظ على سلامة اللغة العربية ، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها ملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر .

وقد أتيت في عدد مضى من الرسالة على أغراض المجمع العلمي العراقي الذي أنشىء في أوائل هذا العام ، وأهم أغراض هذا المجمع المحافظة على سلامة اللغة العربية والعمل على جعلها وافية بمطالب العلوم والفنون وشئون الحياة الحاضرة . وفي سورية ، من زمن المجمع العلمي العربي ، وهو يتفق مع مجمعي مصر والعراق في الغاية التي يعمل لها ، فالثلاثة مجامع لغوية عربية أهم ما تعني به سلامة اللغة ومسايرتها للحياة العصرية ، وهذا يقتضي بطبيعة الحال وضع ألفاظ ومصطلحات ، وقد يضع أحدها لفظاً لشيء غير الذي يضعه الآخر لنفس الشيء ، بل لا بد أن يحدث هذا . ونتيجة ذلك اختلاف البلاد العربية ذات اللغة الواحدة في بعض كلمات هذه اللغة ومصطلحاتها ؛ بل إن هذا الاختلاف واقع فعلا فلم لا تتجمع هذه المجامع في مجمع واحد تكون له صفة « العالمية العربية » ويكون من عمله توحيد ما تختلف فيه البلاد العربية من أسماء لمسميات حديثة ، وتوحيد المنهج في العمل لتحقيق الأغراض اللغوية والأدبية والثقافية التي تتصل بمهمة هذه المجامع ويكون المجمع المنشود فوق كل ذلك صرحاً من صروح الوحدة العربية التي أصبحت حقيقة واقعة . وبدل أن يكون كل مجمع من المجامع الحالية مرتبطاً بحكومته المحلية ، يصبح المجمع الموحد مرتبطاً بجامعة الدول العربية .

هدف لغوي :

في إحدى ليالي هذا الأسبوع سمعت متحدثاً بالمذياع أثار انتباهي بطريقة إلقائه ، والعناية بإعراب الكلمات ، وإخراج الحروف من مخارجها ، ومراعاة قواعد الوقف والوصل ، وتعطيش الجيم ، وما إلى ذلك . ولم يكن الحديث في اللغة ولا في الأدب ، فالإذاعة لا تذيع في اللغة ، والأدب فيها قليل . . على أن أحاديث الأدب لا تظفر بمثل هذه العناية التي يبذلها محدثنا ، وإنما كان الحديث في السياسة ، ولهذا كان انتباهي وعجبي .

وقد زاد هذا العجب عندما انتهى المتحدث وقال المذيع : سمعتم الدكتور فلان بك . لأن الرجل ليس من أهل ذلك .. ولم يعهده أحد من قبل على مثل هذه الحال من إخراج القاف من أقصى الحلق ، وقضم همزة الوصل ، وملء الشدقين باللفظ ، وتنعيم حرف اللين الأخير . .

ومن قبل ذلك سمعت الرجل بأحد النوادي يلقي محاضرة يخيل إلى أنه اختار عنوانها كلمة معينة ، ليذكر جهاده في أنه أول من اهتدى إلى استعمالها في مدلولها الحديث ، ولكن أسلوبه في هذه المحاضرة كان على عهده الأول ، ولم يكن قد بلغ هذا الطور الذي بدا في إذاعته الأخيرة .

قل لي هكذا ! كدت أصيح بهذه الكلمة عندما سمعت اسم صاحبنا يتردد في أثناء الحديث عن شغل الكرسي الذي خلا بمجمع فؤاد الأول للغة العربية بوفاة أنطون الجميل باشا .

ومن أعمال المجمع ذات الأثر الحميد أنه قرر تأجيل شغل هذا الكرسي متجهة نيته إلى شغله في العام القادم . وأثر هذا القرار المفيد ظاهر في صالح اللغة العربية كما رأيت على لسان المتحدث الفاضل ؛ ومن يدري فقد ينهج آخرون مثل هذا النهج القويم ، ولا شك أن استمرارهم عليه عاماً يكسبهم قدرة على الفصاحة ويعيد إلى الدقة اللغوية اعتبارها لدى بعض « التقدميين »

من طرف المجالس :

كان بيد أحد الجالسين مطبوع صغير كتب عليه « ملحمة » وهو نشيد طويل قدمه صاحبه إلى جامعة الدول العربية ليكون « نشيد العروبة » وقدم له بتقاريظ من بعض الكبراء والزعماء

ودار الحديث حول انتقاد هذا الصنيع وهو إقحام الكبراء في الحكم على الشئون الأدبية والفنية .

ثم أقبل أحد الأصحاب وأخذ مجلسه ، فقال لمن بيده « الملحمة » :

— ما هذا ؟

— نابلسي فاروق . . .

العباس



من خدع المستعمرين :

(مقدمة إلى المجاهدين من شمال أفريقة)

بتاريخ ٥ مايو سنة ١٨٦٥ أرسل نابليون الثالث ملك فرنسة إلى مسلمي الجزائر بعهد ننشره تبياناً لمقدمات الاستعمار ، وخدع المستعمرين المختلفة :

السلطنة الفرنسية — إعلان من حضرة الامبراطور سلطان الفرنسيين إلى جميع المسلمين في المملكة الجزائرية : إن الدولة الفرنسية لما وضعت قدمها في وطن الجزائر منذ ٣٥ سنة لم يكن مرادها تمزيق شمل سكان الوطن المذكور ، بل المراد خلاصه من الظلم المترادف عليه منذ أحقاب . وقد جاءتكم بحكم أعدل وأبلغ رشداً مما كانت عليه القوانين التركية التي خلفتها . ومع ذلك فإنكم في السنين الأولى من الاستيلاء وقع لكم قلق واضطراب لرؤيتكم أمة أجنبية تتصرف فيكم ، فلذلك قاتلتم من خلصكم من الظلم . ومعاذ الله أن نظن أن ما صدر منكم يومئذ كان ذنباً يوجب الملام ، بل نجل ما جبلتم عليه من الخصال الحربية التي حملتكم على رفع السلاح في وجوهنا ، وأنتم منتظرون قبل الإذعان لنا إجراء حكم الله .

ولكن قد نفذ حكمه بما أراد فليس إلا الرضا بما قدرته الحكمة الإلهية التي تبلغ المرء إلى الخير في الغالب وتضطره أحياناً إلى عدم نيل مراده وخيبة قصده وعكس اجتهاده .

ومثلما وقع بكم حل بأسلافنا منذ عشرين قرناً فقد هجمت عليهم أمة أجنبية ، فلم يخضعوا لها وقابلوها مكافحين ثم هزموا . ومن يومئذ تحولت حالهم إلى أحسن منها ، وهو مبدأ تاريخ رقيهم ، وإن (الفولز) أسلافنا لما انهزموا تخلقوا بخلق الرومانيين المنتصرين عليهم . وبالاتصال الدائم ، مع اختلاف فضائلهم وعاداتهم تولدت منهم على مرور الأزمنة هذه الأمة الفرنسية التي وفق الله لها وقتا لتنشر في الدنيا ما ألهمها الله من محاسنها .

ومن يدري ! لعل العرب في يوم آت يجدون مساعدة وعوناً على الاستقلال في بلادهم ، كما كانوا قبل في القرون الماضية مسيطرين على بعض سواحل البحر الأبيض المتوسط ولكن لا يكون ذلك إلا بعد صلاح أحوالهم واختلاطهم بالأمة الفرنسية .

فارضوا أيها العرب بما حكم الله به ، وقد قال تعالى (تؤتي الملك من تشاء) وحيث أقدرني الله على هذا الملك بقدرته ، أريد أن أصرف أموركم بما يؤمن مصالحكم وخيركم ، وقد قررت لكم ملكية الأرض التي كنتم تستغلونها تقريراً قاطعاً مستمراً ، وأجللت مقام كبرائكم مع احترام دينكم ، ورغبتي أن أزيد في رفاهيتكم وأن أشرككم في حكم الوطن ، أكثر مما أنتم عليه الآن ، كما أرغب في مساهمتكم في أنواع خيرات التمدن . لكن ذلك مقرون بشرط طاعتكم واحترامكم لمن ينوب عني في الحكم وأخبروا إخوانكم المغرورين بأن استمرار سعيهم بعدم الطاعة سيعود بالخسران عليهم ، فالمليونان من العرب لا يقدرون على معاندة أربعين مليونا من الفرنسيين . وحيث تحققتم بأني سلطان عليكم فاعلموا أني محام لكم ، وأن كل من عاش طائعاً في ظل حكمنا فله حق المساواة ، واذكروا أنكم منتسبون إلينا إذ كنتم منذ عشرة أعوام أحرزتم نصراً مع جنودنا ، ووقف أولادكم إلى جنب أبنائنا في المعارك التي وقعت في القرم وإيطالية والصين والمكسيك ، ولا تنحل الرابطة التي تقع في ساحات الحرب . وقد رأيتم قوتنا وما نفعله بعدونا عند عدوانه ، وما نبذله من مودتنا حين تودده . فاعتمدوا معشر العرب على الدولة الفرنسية لأن شؤونكم وشؤونها متحدة ، ومن يهدي الله فهو المهتد ، كما في القرآن .

انتهى من (جريدة المؤيد) بتاريخ ١٣ أكتوبر ١٩١١ .

من شئون الحرب في الإسلام :

وفي حصار العرب لدمشق ولد للبطريق الذي على دمشق ولد فدعا قومه فأكلوا وشربوا وتركوا مواقفهم الحربية ، ولم يعلم سوى خالد فإنه كان لا ينام ولا ينيم ولا تخفى عليه من أمور الروم خافية ، وكان قد اتخذ حبالا كهيئة السلم ، فلما أمسى ذلك اليوم

نهض مع بعض رجاله وقال للجند : إذا سمعتم تكبيراً على السور فاصعدوا إلينا واقصدوا الباب . فلما وصل مع رجاله إلى السور ألقوا الحبال فصعد عليها الرجال ، وكان المكان الذي صعدوا إليه أحصن موضع بدمشق وأكثره ماء ، ثم استوى على دمشق .

***

وفي وقعة أجنادين بعث قائد الروم من يأتيه بأخبار المسلمين ، فلما عاد قال (بالليل رهبان ، وفي النهار فرسان ، ولو سرق ابن ملكهم قطعوه ، ولو زنى رجم ، لإقامة الحق فيهم) فقال القائد إن كنت صدقتني لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها .

***

وفي فتح القادسية ظل رستم قائد الفرس مدة يعرض على قومه مصالحة المسلمين فلم يقبلوا ، فنصب سريره ورتب جنده ، وجعل أمامه الفيلة ، كما أن يزدجرد وضع جنداً بين المدائن والقادسية لتأتيه بالأخبار . أما سعد بن أبي وقاص فقد كان به دماميل لا يستطيع الجلوس بسببها ، فاختص قصراً لهم عيا الجند وحثهم على القتال . ثم التحم الجيشان ، وارتجز الشعراء ، فاشتد عواء الفيلة وأجفالها ، ثم انكسر الفرس وأسر هرمز من ملوكهم ، ووقعت الصناديق عن الفيلة ، وكانت سبعين فيلا وهلك من عليها ، ثم أعادوها في ثالث يوم فدمروا أيضاً . ثم هبت ريح قلبت سرير رستم فقام يستظل بظل بغل فضربه هلال بن علقمة فقتله ، وطيف برأسه ، فتفرق الفرس وأخذ العرب رايتهم الكبرى ، وكان عدد قتلى العرب في هذه الوقعة نحو ثمانية آلاف ، وعدد قتلى الفرس زهاء ثلاثين ألفا . وبسببها سقطت بلاد العراق في يد العرب حياهم الله .

الطلاق الثلاث بلفظ واحد :

في ص ٥٧١ من عدد « الرسالة » ٦٧٦ (لقد كان الطلاق الثلاث بلفظ واحد يقع طلقة واحدة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلافة أبي بكر ، وفي صدر خلافة عمر ، ولكن الناس خالفوا ذلك فأوقعوه ثلاثا فأمضاه عمر عليهم عقوبة لهم ، وأخذ الأئمة الأربعة بحكم عمر في ذلك) ...

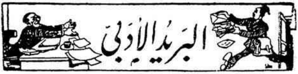
وفي سنن البيهقي وعند الطبراني وغيرهم بأسانيدهم : كانت عائشة بنت الفضل عند الحسن بن علي ، فلما بويع بالخلافة هنأته ، فقال الحسن : أتظهرين الشماتة بأمير المؤمنين ، وأنت طالق ثلاثا — ومتعها بعشرة آلاف — ثم قال لولا أني سمعت جدي رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أو سمعت أبي يحدث عن جدي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا طلق الرجل امرأته ثلاثا عند الأقراء أو طلقها ثلاثا مبهمة لم تحل له حتى تنكح زوجاً غيره ، لراجعتها وإسناده صحيح .

ومن الدليل على وقوع الثلاث بلفظ واحد في عهد النبي عليه الصلاة والسلام حديث الملاعنة المخرج في صحيح البخاري ، حيث قال عويمر العجلاني في مجلس الملاعنة : كذبت عليها إن أمسكتها يا رسول الله ، فطلقها ثلاثا قبل أن يأمره النبي عليه الصلاة والسلام ، ولم يرد في رواية ما أنه عليه الصلاة والسلام أنكر عليه ذلك ، فدل على وقوع الثلاث مجموعة ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن ليدع الناس يفهمون وقوع الثلاث بلفظ واحد لو لم يكن هذا الفهم صحيحاً . قال ابن حزم : لولا وقوع الثلاث مجموعة لأنكر ذلك عليه . وفهم البخاري أيضاً من هذا الحديث ما فهمته الأمة جمعاء من الوقوع حيث ساق هذا الحديث في صحيحه في (باب من أجاز طلاق الثلاث) .

وفي المجموع الفقهي عن زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي عليهم السلام أن رجلا من قريش طلق امرأته مائة تطليقة فأخبر بذلك النبي عليه الصلاة والسلام فقال بانت منه بثلاث وسبع وتسعون معصبة في عنقه . وبمعناه أحاديث في (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج ٤ ص ٣٣٨) ، ومن حديث ابن عمر قال أرأيت لو طلقتها ثلاثا أكان لي أن أراجعها فقال النبي عليه الصلاة والسلام : لا ، كانت تبين ...

وأما حديث ابن عباس (كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة ...) الذي أخرجه مسلم في صحيحه . فقد رده النقاد لعلل كثيرة ، منها :

١ — مخالفته لمذهب راويه ابن عباس فقد ثبت عنه أنه يرى أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد يقع ثلاثا . روى ذلك عنه عطاء



حديث البرد أو البرداء :

قرأت من أسابيع حديث الدكتور زكي مبارك الأسبوعي في صفحة جريدة « البلاغ » الأدبية ، فوجدته يفتتح الحديث بالبرد وخوفه منه ، وشدة هلعه من آثاره في جسمه ، ثم ختم الحديث — حديث البرد — بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في البرد : اتقوا البرد ، فإنه قتل أخاكم أبا الدرداء .

ويغلب على الظن — بل أكاد أكون جازماً — أن تلك القولة إنما هي سجعة سجع بها بعض المتفاصحين فإن أبا الدرداء — واسمه عويمر بن مالك الأنصاري الخزرجي — لم يمت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يخبر الرسول عن وفاته بسبب البرد أو غير البرد من أسباب الموت المتعددة ، بل عاش إلى ما بعد ذلك بأمد طويل ، فقد عاش إلى سنة ٣٢ من الهجرة حيث توفي في الشام وقد ولاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أبي الدرداء هذا عويمر حكيم أمتي . وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم الغازي عويمر . وكان أبو الدرداء رضي الله عنه تاجراً من كبار تجار المدينة قبل الإسلام ، وصار بعد أن أسلم من نساك الفرسان ، وشجعان النساك . عليه رضوان الله .

(حلوان) برهان الدين الداغستاني

١ — طريق الهجرة النبوية :

كنت استدركت على الأستاذ الحصاني بعض مواضع مر بها النبي صلى الله عليه وسلم في هجرته ، معتمداً على (عيون الأثر في فنون المغازي والسير) لابن سيد الناس — طبعة مصر — و (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ الهيثمي) — طبعة مصر — مما لم يذكره الأستاذ محمود الحصاني في (خريطة الهجرة النبوية) وقد زارني عالم أديب نجدي فاطلع على هذه الخريطة وعلق عليها

وعمرو بن دينار ومالك بن الحارث ومحمد بن إياس والنعمان بن أبي عياش وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم ، بل طاوس نفسه راوي الحديث السابق عنه .

٢ — انفراد طاوس بروايته ، وإنه لم يتابع عليه ، وقال القاضي اسماعيل في أحكام القرآن وقال غيره أيضاً : طاوس يروي أشياء منكرة منها هذا الحديث ...

٣ — وجود انقطاع في الحديث ، وفي صحيح مسلم بعض أحاديث منقطعة .

٤ — إن أبا الصهباء أحد رواته إن كان مولى ابن عباس فهو ضعيف على ما ذكره النسائي ، وإن كان غيره فهو مجهول .

٥ — إن في بعض طرقه (هات من هناتك) وجل قدر ابن عباس عن أن يواجهه أحد من الصحابة في طبقته فضلاً عن مولاه بمثل هذا الخطاب ، وعلى تقدير إجابته يكون الجواب من هناته المردودة باعترافه ، وقد اشتهر حكم رخص ابن عباس عند السلف والخلف .

٦ — استحالة خروج عمر رضي الله عنه على الشرع بالرأي ، وسكوت الصحابة على ذلك .

٧ — حديث ركانة الذي بمعنى هذا الخبر ، هو حديث منكر على مايقول الجصاص وابن عبد البر وابن الهمام والحافظ ابن حجر ، وأعله البخاري بالاضطراب ...

٨ — حديث ابن عباس لفظه محتمل ، وعند الاحتمال يسقط الاستدلال .

هذه كلمة موجزة استخلصتها من (الاشفاق على أحكام الطلاق) و (ذيول تذكرة الحفاظ) و (أحكام القرآن للجصاص) و (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي) .

لاظ أوغلي :

كانت الإذاعة المصرية أذاعت كلمة مقتضبة عن هذا الرجل ، فأزيد عليها بأن معنى اسمه (ابن لاظ) وهي قبيلة قوقازية على ساحل البحر الأسود ، وهي فرع من الجركس . وكان سلاحدار خسرو باشا والي مصر قبل محمد علي باشا ، ثم تولى في عهد محمد علي باشا الكتخدائية (وزارة الداخلية) بعد إقالة طوبوز أوغلي .

محمد أسامة عليبة

بما يأتى — وأهل مكة أدرى بشمابها — :

١ — منازل ثقيف هى فى الطائف وما حوله ، وليست لهم منازل فى شمال خيبر .

٢ — الرجيع من منازل هذيل بقرب مكة ، لا فى شمال المدينة.

٣ — بعاث بالثاء المثلثة ، لا بالتاء المثناة .

٤ — بواط بدون أل التعريفية ، على ما فى (عيون الأثر) ومعجمات اللغة .

٥ — العشيرة هى من قرى ينبع النخل و بقربها، لا على الساحل.

٦ — العيص هى قرية تابعة لينبع ، وليست على الساحل .

٧ — بئر معاوية صوابها (بئر معونة) فى أرض بنى عامر .

٨ — بنو زبيد مساكنهم رابغ وما يجاورها ، ولم يكونوا هنا فى عهد الهجرة بل كانوا باليمن .

٩ — غران بالنون ، لا بالراء .

١٠ — وادى حنين يقع بين نخلة ومكة ، لا فى شرق نخلة .

١١ — عكاظ هو فى الجنوب الشرقى من الطائف ، لا فى الشمال الغربى منها .

١٢ — كرا الواقع بين الطائف وعرفات هو بالراء لا بالدال ، وهو جبل عظيم ، وأما (كدا) فهى ثنية بمكة ، وتسمى الآن (ريع الحجون) .

١٣ — الوتير هو بالتاء المثناة ، لا بالثاء المثلثة .

١٤ — نخلة ليست موضعاً واحداً ، بل هما واديان عظيمان بقرب مكة ، أحدهما وادى نخلة اليمانية ، والآخر وادى نخلة الشامية ويجتمعان فيكونا وادياً يسمى مر الظهران ، يصب فى البحر الأحمر ، فى جنوب جدة .

٢ — من أوهام الأقلام :

١ — لكم تداولت أقلام الكتاب « حبذت عمل فلان » يريدون بذلك استحسنت عمله . مع أن أئمة اللغة أمسكوا عن الإقرار بصحته ، إلا صاحب القاموس فقد قال : « لا تحبذنى أى لا تقل لى أنت حبيبى » وقد أثبته تباهياً على الجوهرى فى أن القاموس أغزر مادة من الصحاح ، وقال صاحب التاج ؛ في زيادة مثله على الصحاح نظر . فلو تسامح أعلام اللغة فى استعماله ما تسامحوا فى جواز دلالته على المعنى الذى استحدثه له بعض كتاب هذا الزمن .

٢ — وأحلوا « المواطن » فى موضع « الوطنى » مع أنه لا يدل على شيء مما يعنون ، فهو اسم فاعل من واطنت فلانا على هذا الأمر إذا أضمرت في نفسك أن تفعله معه .

٣ — ويستعملون « الحياد » فى عدم الدخول فى الحرب ، مع أنه من اللفظ المهمل عند العرب ، بهذا المعنى فالاعتزال أدل من غيره على التنحى عن الحرب ، قال الحارث بن عباد :

قد تجنبت وائلا كى يفيقوا وأبت تغلب على اعتزالى

٤ — ويقولون « لبثوا هناك برهة من الزمن » يعنون به وقتاً قصيراً . مع أن البرهة هى الوقت الطويل . وللوقت القصير ألفاظ كثيرة عند العرب ، منها « هنيهة » .

٥ — ويقولون « إخصائى » والصواب « متخصص » وهو المنقطع إلى ممارسة فن واحد يحذقه . لأن الإخصاء هو سل الخصيتين . وقول القاموس : « أخصى تعلم علماً واحداً » خطأ .

٦ — ويقولون « المخابرة — المخابرات » والصواب « المراسلة » لأن المخابرة هى المزارعة على نصيب معين .

انتهى بإيجاز من (المناظرة اللغوية الأدبية بين الأساتيذ : عبد الله البستانى والمغربى والكرملى) المطبوعة بمصر .

محمد أسامة عليبة

حول كلمة (غورى) :

فى نقدى لديوان « طفولة نهد » للشاعر السورى نزار قبانى يقول الأديب الفاضل عثمان موسى معقباً على بعض ما قلت فى نقدى لديوان « طفولة نهد » إننى عبت على كلمة « غورى » فى شعر نزار قبانى ، وهى كلمة صحيحة من غار يغور ، وإن الذى دعانى إلى هذه التخطئة هو أن العامة استعملت هذا الفعل بمعنى قريب جداً من هذا المعنى ... والشيء الذى أود أن أقوله له هو أن الزاوية التى نظرت منها إلى الكلمة بعيدة كل البعد عما ذهب إليه فأنا — مع علمى بأن الكلمة صحيحة — لم أتعرض لها بالتخطئة وإنما تعرضت لها من ناحية تأثيرها فى الصياغة الشعرية ؛ لأن كلمة « غورى » حين ترد فى بيت من الأبيات تجعل القالب الشعرى أقرب إلى النثر منه إلى الشعر .. ولا يعيب المعانى مثل صبها فى قوالب نثرية .

هـذا هو كل ما قصدت إليه ، وعلى الأديب الفاضل أن يرجع إلى ما كتبت ، وأن يراجع بعد ذلك نفسه ! . .

أنور المعداوى



على هامش كتاب :

٢ – سعد زغلول من أقضيته

« إلى القانونى الأديب الأستاذ عبده
حسن الزيات تحية شكرى وإعجابى »

للأســــتاذ عدنان الخطيب

٢ — الغيرة القومية :

فى مصر قضاءان ، كان الأجنبي منهما دائرة تحصيل وتشجيع للأجانب على امتصاص أموال البلاد ، والتمادى فى الاستعلاء على أصحابها الشرعيين ، يوم كان (.. يقاد الفلاح الأمى ، ويقاد المصرى الذى يتصبب عرقاً فلا يملك وقار نفسه حين يستطيع أن يقرأ أنباء الوفيات فى صحيفة عربية ، وتقاد الأرمل القرير ، يقاد هؤلاء ، ويقاد من هو أجهل منهم وأضعف إلى أقلام كتاب المحاكم المختلطة فيمضون أو يبصمون أوراقاً لا يميزون أسفلها من أعلاها ، ولا يجرأون أن يرفعوا عيونهم إلى الموثق المعظم الذى يحررها ، ثم ينصرفون ويقال « عقود رسمية » لا يكلف تنفيذها هذا الدائن المرابى أو المخاتل ، إلا أن يدفعها إلى أقلام المحضرين أو ينزع بها ملكية العقار ، فهى كالحاكم أو أقوى ، هى الحكم الذى ظهر بغير دفاع ، وبغير مستندات ، وبغير معارضة ، وبغير استئناف ، وبغير التماس .

وكان القضاء الأهلى مفخرة يفاخر بها الشرق العربى إذ كان فيه رجال كسعد وإخوانه ، تقرأ أحكامهم فتجد فيها (فقهاً جباراً سليماً ، وعقلا قانونياً بالطبع ، لا تختلط عليه شعرة بشعرة) وإذا انتهيت منها انتهيت (إلى نتيجة لا ترضى القانون وحده ، ولكنها ترضى العاطفة الوطنية أيضاً) .

اسمع سعداً يرد على مصرى أحب أن يحتمى بالقضاء الأجنبى صارخاً فى وجهه [لا سلطة لقوانين المحاكم المختلطة إلا على الحقوق المختلطة] ، وهناك أحكام كثيرة إن قرأتها وجدت فيها صورة صادقة عن (جهاد سعد الأول فى مكافحة الامتيازات وتمصير القضاء) ذلك الجهاد الذى أثمر معاهدة مونترو يوم ظفر (تلامذة سعد وأصدقاؤه بتقليم أظافر نظرية الصالح المختلط) والذى نرجو أن ينتهى قريباً بقطع كل يد أجنبية تنقص من استقلالنا ، وفى وجودها اعتداء على حريتنا أو عدم ثقة بعدالتنا ، ونحن يوم كنا فاتحين غالبين ، لم يكن فى الدنيا عدل غير عدلنا .

٣ — النصوص عن العبث :

(فى قواعد الاجراءات مدنية وجنائية ، وفى دفوع الخصوم ، تحكمات كثيرة قد يؤدى تطبيقها تطبيقاً أعمى إلى نتائج غير عادلة ومضحكة أحياناً) ولكنك إذا رأيت قضاء سعد عندما يصطدم بتلك التحكمات رأيته (قضاء جمع بين السلامة والحكمة) وإذا قرأت الأسباب التى يستهل بها أكثر أحكامه قرأت أسباباً (محكمة قوية التدليل … تنبئ عن التحرر من الشكليات وصون الحق من أن يضحى فى سبيلها إذا أمكن تضحيتها هى بغير خرق للقانون) فاسمع سعداً يقول فى حكم له [إن هذا يعتبر خطأ فى التطبيق . وكان يوجب الناء الحكم المطعون فيه لو أنه أضر بالمتهم] أو قوله [إن الخطأ فى تطبيق القانون لا يكون وجهاً للنقض إلا إذا نشأ منه ضرر] لا بل انظر سعداً حين يقرر [أن عدم تبيان تاريخ الحكم المستأنف فى عريضة الاستئناف لا يستلزم بطلانهـا إلا إذا ترتب عليه عدم تمييزه عما عداه] لتعرف سعداً أى القضاة كان فى سعة أفقه وتحرر فكره ، واستجابته للحق المجرد .

٤ — وضع الأمور فى نصابها وصبر القضاء :

(دقة التمييز بين المتشابهات هى ميزة الفقيه الأولى ، والصبر من ألزم وأجمل ما يتحلى به القاضى الكامل) وقد كرس الأستاذ الزيات هذا الفصل (لبيان مدى تمكن هاتين الصفتين من عقل سعد ومن نفسه) وهو لم يحاول فيه أن يكيل الثناء لسعد كيلا (بالحق وبالباطل ، إنما كان يحاول تحليله) ودراسة آثاره دراسة عميقة تصور للقارىء عظمة سعد فى تفكيره ، وعظمته فى أخلاقه

وأنك إذا قرأت حكماً من الأحكام التي نقلها لعجبت أن ترى الدائرة التي أصدرته (لا تهمل في أسبابها أن تؤاخذ ، وتقعب ولا ترى عبثاً أن تسمع إلى المبطل لتقول له بعد ذلك — أو لتقول للناس فهو أدرى بنفسه — بأسباب طويلة مفصلة ، كيف وفيم كان مبطلا) ولوجدت خير شاهد على كل هذا في مثل قول سعد [نعم إن ذلك ربما يفضي إلى ... ولكن عكسه يؤدي إلى ... » ثم «وحيث أنه وإن كان الحكم الصادر في مواجهة أحد الشركاء في حق غير قابل للانقسام لايسرى على بقيتهم فإن قطع المدة الخ» ثم « وليس هذا لأن ... بل لأن ...]

إن جميع تلك الأحكام التي صدرت عن دائرة فيها سعد يكفيك النظر إليها لتقر الأستاذ الزيات على أن محررها كان سعداً لاعتبارات عديدة. وفي طليعتها (ظاهرة اللوم يوجه إلى دفاع الحكومة وصوت المرشد والمعلم الذي لا يأسف حين تسنح له فرصة تشبع فيه شهوتين : شهوة الإرشاد للاصـــلاح ، وشهوة الإرشاد للاستعلاء على الضعاف والمهملين)

اقرأ تلك الأحكام ، اقرأها لتعرف متعجباً كيف كان (يضع « المعلم » ويضع « الفقيه » كل شيء في نصابه) وكيف كان « القاضي » يصبر صبر القاضي العادل الرزين.

٥ — حرية الدفاع وحقوقه :

كان في سعد (حرص القاضي العادل على مظهر العـدل ، وحب الخطيب الترافع لسماع المرافعات) وكان لا يعترض صاحب حق أو صاحب دعوى في الدفاع عن موقفه ... ولا يضيق فرص الدفاع أمام شاك أو مشكو) والأستاذ الزيات لا يعني بلفظة « الدفاع » هذه (الترافع عن المتهم فقط ، إنما يعني الدفاع عامة في الميدان المدني والجنائي ، ويعني به هذا المعنى الفني المتخصص الذي يرادف « المحاماة » و « المحامين ») فسـعد الذي يقول إن [حفظ النظام الذي من أهم أركانه ألا يحكم انتهائياً على أحد إلا بعد تمكينه من الدفاع عن نفسه] يوجب [أن يكون الدفاع عن المتهم حراً خالياً عن جميع المؤثرات التي تقيد المحامي]

ولكن سعداً إن احترم الدفاع ولم يضيق عليه لم يكن ليتساهل معه إذا تجاوز حقوقه أو أخل (في نظـام التخاصم ، أو لم يحفظ للقضاء هيبته) وهو لم يتأخر مرة عن أن يصدر حكماً يعرض فيه بمن أخل بالنظام ، إن قرأته رأيت فيه (عصا المؤدب ترتفع ... وهو كاشر عن نابه ، معتد بمقعـــده العالي ، يفعمه السخط على هؤلاء الذين اجترأوا على مقامه ، اجتراء إن لم يبلغ حد الخلاف لأمره ، فقد بلغ حد التصرف بغير إذنه !) بل إنه لا يتأخر أحياناً عن الرد على المحامين وهو (يبيع لهم بضاعتهم ، ويأخذهم بمنطقهم ، ويقيدهم بحبال من صنعهم) ؛ بل هو لم يتأخر مرة أو مرات عن إحالة بعض المحامين إلى مجلس التأديب لأنهم أهملوا واجباتهم ، أو لأنهم استعملوا الخديعـة مع خصومهم ؛ وليس هذا بمستغرب من قاض لم يتأخر عن القول [أن الخطة التي جرت الحكومة عليها في هـذه الدعوى لا توجب ارتياح القضاء لأعمال مندوبها فيها]

(لا توجب ارتياح القضاء ! وليس هذا بالقليل حين يصدر من القضاء !

وليس هذا بالقليل حين يصدر على الحكومة ! إنه اتهام ! فإدانة ! فعقاب !!)

٦ — الفقه الشرعي :

درس سعد في الأزهر ، فتفقه في الدين ، ثم درس الحقوق وتقلد منصب القضاء ، وأخذ يحكم بين الناس بموجب القوانين المدنية الحديثة ، ولكنه (لم يهمل الإفادة من دراسته الفقهية الأزهرية ؛ بيد أنه لم يتعمد التعالم بها وإقحامها في غير مقحم ، وإنما كان يضعها موضعها حين يكون العرض لها والأخذ منها أمراً لازماً أو شبه لازم) لقد أصدر مرة حكماً يقول فيه [إن المعول عليه في الشريعة الغراء ... هو الموافق للعدل ، إذ لا يجوز لمدين أن يتبرع بمال تعلقت به حقوق الغير]

لقد كتب سعد هذا الحكم وهو بلاشك (مغتبط بما وجد عند الشريعة الإسلامية من رأي معول عليه ، اغتباط القاضي العادل حين يجد النص « الموافق للعدل ») وإذا علم القارىء أن صاحبي سعد في حكمه هذا كانا أجنبيين لا يجد أية صعوبة في (تمييز الولد العظيم لهذا الأثر العظيم)

٧ — القاضي الحافظ :

تكلم الأستاذ الزيات في كتابه كثيراً عن (ثورة المصلح وغيرة العادل ، وتحرره من الأوضاع وتمرده على شكليات القانون والبحث عن الحق أنى ثقفه ، وتوفير العدل من كل طريق) ولكنه أسرع في فصله السابع إلى الكلام عن سعد الحافظ

حتى لا (ترسم للرجل فى الأذهان المتسرعة المشغوفة بالأحكام المطلقة صورة ذات أود لا تصدق التعبير عنه أولا تستوفيه) وتقل لنا أحكاماً من قراءتها نجد سعداً ليس بالمحافظ الجامد ولا بالمجدد المائع ، بل هو القاضى المفكر الذى (يستقصى الحقيقة) وينطق بالحكم الذى يرضى وجدانه ، وليس فى أحكامه (ما يند عن مزاج محافظ ، وليس فيها أيضاً ما يتعارض مع مزاج مجدد) .

وليس أجمل من هذه الفقرة يختم بها الأستاذ الزيات فصله إذ يقول (ويتصل بمعنى المحافظة الروح العائلى الذى يطالعنا فى أكثر من حكم واحد : كره سعد من نظار الوقف أن يتحيفوا حقوق المستحقين ، وأبى على بعض الورثة أن يتملكوا حصص الآخرين بما يزعمون من وضع يد مستطيل ، ثم كره من صغار الأخوة أن يستأدوا كبارهم الريع عما مضى ، ذلك بأنهم حيوا فى أكنافهم ، فليكن الريع فى النفقة ، ولتكن الأسرة وحدة ، ولتظل المحبة أخوة متآخين على سرور متقابلين .

فإذا دخلت الجريمة بين الأخ وأخيه ، أو بين الوالد وبنيه ، فالويل للمجرم الأثيم : لن يظفر من رفق سعد وسماحه بغير (القصاص) الجسيم .

٨ — القاضى الجنائى :

خير كلمة وصف بها الأستاذ الزيات سعداً القاضى الجنائى (هى كلمة « الموزون ») وصفه بها بعد أن نقل كثيراً من أقضيته الجنائية ، وأثبت كيف كان كل واحداً منها (قضاء رفيقاً عادلا موزوناً كما أثبت أن سعداً لم يكن (بالقاضى الذى يجهل أو يهمل وظيفته الاجتماعية ، ولا شك أن القاضى الجنائى الذى يقدر دوره الاجتماعى حق قدره لا يستطيع أن يحمل لوزن العقوبة ميزاناً من نحاس أو حديد ، فميزان هذا شأنه لن يغنى مهما يكن مدى انضباطه) انما العدالة (تريد ميزاناً حساساً مستجيباً بلون العقوبة باللون المناسب للمتهم ، ويفردها كما يقول أصحاب علم العقاب) .

كان سعد إذا اقتنع لا يتأخر عن الإدانة أبداً ، ولكنه كان (لا يكتفى بأن يقتنع ، وإنما يرى حقاً عليه للعـــدل والضمير الاجتماعى والمتهم نفسه) أن يقنع كل الناس (بما اقتنع به) ، ومع كل هذا فقد سمح كاتب جلسانه لنفسه بأن يقول عنه أنه كان (يبتعد عن الإعدام ، وأنه كان يتهم بأنه ما زال فى قضائه متأثراً بحرفة المحاماة والدفاع عن المتهمين) والحقيقة الناصعة أن أحكام سعد كلها ليس فيها (تضييع لحق الجماعة ، ولا إهدار لمصلحة الفرد والدفاع) ؛ أسمعه ، وقد تألم من عقوبة حصلت بنتيجة خطأ ، كيف ثار وصرخ (إن العدالة الإنسانية التى وضع القانون لاحترامها تأبى إيلام نفس بعقوبة) تنتج عن خطأ . لا بل أسمع هذا المبدأ على لسان سعد المشرع [لا يجوز أصلا أن يلقى الشخص عقابه ويعذب ويتألم ، بينما تكون العدالة لا تزال مشتغلة بشأنه ، باحثة فيما إذا كان مستحقاً لذلك العقاب أم لا)

وصفوة القول أن قاضينا الجنائى (لم يكن بالمتحرج فى تأويل النص المعاقب ، ولا بالمترخص فيه ، ولم يكن الجانح إلى الإدانة ، أو الشغف بالتبرئة ، ولم يصطنع قسوة الحكم كمبدأ ، ولا اختط التسهل طريقة) بل كان القاضى الذى (عرف أين يلين وأين يقسو) أنه كان (القاضى الموزون) .

عدنان الخطيب

(البقية فى العدد القادم)